Journal of Scientific and Human Dimensions
مجلة الأبعاد العلمية والإنسانية
ISSN: 3106-1702
Volume 2, Issue 3, 2026 Pages: 1140-1171
Journal homepage: https://jshd.com.ly/index.php/jshd/en

# The Perfect Human in Sufi Thought: A Sufi-Philosophical Approach to Self-Construction and the Realization of Human Perfection According to Ibn Arabi and Abd al-Karim al-Jili

Dr. Amal Mohamed Amer *
Department of Philosophy – Faculty of Arts, Misrata University, Misrata, Libya

# الْإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي الفِكْرِ الصُّوفي: مُقَارَبَةٌ صوفية فَلْسَفِيَّةٌ في بِنَاءِ الذَّاتِ وَتَحَقُّقِ الكَمَال الْإِنْسَانِي عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيَ وَعَبْدِ الكَرِيم الجِيلِيّ

د. آمال محمد عامر *
قسم الفلسفة - كلية الآداب جامعة مصراتة، مصراتة، ليبيا

*Corresponding author: Am_libya_al@yahoo.com

| Received: July13, 2026 | Accepted: August 25, 2026 | Published: September 29, 2026 |
|---|---|---|

**Copyright:** © 2026 by the authors. This article is an open-access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

**Abstract:**
The Perfect Human in Sufi Thought: A Sufi-Philosophical Approach to Self-Formation and the Realization of Human Perfection in Ibn ʿArabī and ʿAbd al-Karīm al-Jīlī. This study proceeds from a central problem concerning the nature of the concept of the Perfect Human (al-Insān al-Kāmil) in Sufi thought, particularly in the works of Muḥyī al-Dīn Ibn ʿArabī and ʿAbd al-Karīm al-Jīlī. Despite the prominent presence of this concept in Sufi and philosophical studies, it has often been approached primarily through its ontological and epistemological dimensions, with particular emphasis on the human being's position within the order of existence and the relationship of the human being to divine self-disclosure (tajallī), the Divine Names, vicegerency (khilāfah), and sainthood (walāyah).
Important as this approach is, it opens the way to another, equally significant question: How does the human being become perfect? To what extent can the concept of the Perfect Human in Ibn ʿArabī and ʿAbd al-Karīm al-Jīlī be interpreted as a Sufi-philosophical project of self-formation? Furthermore, how does perfection develop from a metaphysical conception of human reality into an epistemological, ethical, and spiritual path through which the human being realizes the fullness of human perfection?.

**Keywords**: Perfect Human; Spiritual Purification (Tazkiyah); Epistemological; Ontological.

**الملخص**
يَنْطَلِقُ هَذَا البَحْثُ مِنْ إِشْكَالِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي الفِكْرِ الصُّوفِيّ، وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُضُورِ المَفْهُومِ في الدِّرَاسَاتِ الصُّوفِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ، فَإِنَّ قِرَاءَتَهُ غَالِبًا مَا تَتَّجِهُ إِلَى أَبْعَادِهِ الوُجُودِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ، وَإِلَى مَوْقِعِ الإِنْسَانِ فِي نِظَامِ الوُجُودِ، وَعَلَاقَتِهِ بِالتَّجَلِي وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ والخلافة والولاية.
غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ القِرَاءَةَ، عَلَى أَهَمِّيَّتِهَا، تَفْتَحُ مَجَالًا لِسُؤَالٍ آخَرَ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً: كَيْفَ يَصِيرُ الإِنْسَانُ كَامِلًا؟ وإِلَى أَيِ مَدًى يُمْكِنُ قِرَاءَةُ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا فَلْسَفِيًّا صُوفِيًّا لِبِنَاءِ الذَّاتِ، وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ الكَمَالُ مِنْ تَصَوُّرٍ مِيتَافِيزِيقِيّ لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ إِلَى مَسَارٍ مَعْرِفِي وَأَخْلَاقِيّ وَرُوحِيّ لِتَحَقُّقِ الإِنْسَانِ بِكَمَالِهِ؟.

**الكلمات المفتاحية:** الكامل، التزكية، معرفي، وجودي.

**المقدمة**

يُعَدُّ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ أَكْثَرِ المَفَاهِيمِ الصُّوفِيَّةِ عُمْقًا وَتَرْكِيبًا؛ لاتِّصَالِهِ بِتَصَوُّرِ الصُّوفِيَّةِ لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ، وَمَعْرِفَةِ الذَّاتِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَالعَلَاقَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالوُجُودِ وَالحَقِّ تَعَالَى. وَتَكْتَسِبُ هَذِهِ الإِشْكَالِيَّةُ أَهَمِّيَّةً خَاصَّةً عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ عَرَبِي وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ؛ إِذْ تَحَوَّلَ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مَعَهُمَا إِلَى بِنَاءٍ مَعْرِفِي وَوُجُودِي وَرُوحِيَ مُرَكَّبٍ.

وَلَا يَقْصِدُ هَذَا البَحْثُ إِلَى إِعَادَةِ عَرْضِ نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فَحَسْبُ، بَلْ يَسْعَى إِلَى نَقْلِ السُّؤَالِ مِنْ: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ؟ إِلَى: كَيْفَ يَبْنِي الْإِنْسَانُ ذَاتَهُ حَتَّى يَتَحَقَّقَ بِمَعَانِي الكَمَالِ؟ وَمِنْ ثَمَّ، يُقْرَأُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا لِتَحَوُّلِ الذَّاتِ، يَجْمَعُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالتَّحَقُّقِ الأَخْلَاقِيِّ وَالرُّوحِي.

إِشْكَالِيَّةُ البَحْثِ:- يَنْطَلِقُ هَذَا البَحْثُ مِنْ إِشْكَالِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي الفِكْرِ الصُّوفِيِّ، وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُضُورِ المَفْهُوم في الدّرَاسَاتِ الصُّوفِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ، فَإِنَّ قِرَاءَتَهُ غَالِبًا مَا تَتَّجِهُ إِلَى أَبْعَادِهِ الوُجُودِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ، وَإِلَى مَوْقِعِ الإِنْسَانِ فِي نِظَامِ الوُجُودِ، وَعَلَاقَتِهِ بِالتَّجَلِّي وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ والخلافة والولاية. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ القِرَاءَةَ، عَلَى أَهَمِّيَّتِهَا، تَفْتَحُ مَجَالًا لِسُؤَالٍ آخَرَ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً: كَيْفَ يَصِيرُ الإِنْسَانُ كَامِلا؟ فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ الكَامِلُ يَحْتَلُ مَرْتَبَةً مَرْكَزِيَّةً فِي البِنَاءِ الصُّوفِيِّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ، فَإِنَّ المَسْأَلَةَ لَا تَقِفُ عِنْدَ تَحْدِيدِ مَاهِيَّتِهِ، بَلْ تَمْتَدُّ إِلَى الكَشْفِ عَنْ مَسَارِ بِنَاءِ الذَّاتِ الَّذِي يَنْتَقِلُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الإِمْكَانِ إِلَى التَّحَقُّقِ، وَمِنْ تَشَتُّتِ النَّفْسِ إِلَى وَحْدَتِهَا، وَمِنْ مَعْرِفَةٍ ذِهْنِيَّةٍ إِلَى مَعْرِفَةٍ تَتَحَوَّلُ إِلَى حَالٍ وَخُلُقٍ وَوُجُودٍ.وإِلَى أَيِ مَدًى يُمْكِنُ قِرَاءَةُ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا فَلْسَفِيًّا صُوفِيًّا لِبِنَاءِ الذَّاتِ، وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ الكَمَالُ مِنْ تَصَوُّرٍ مِيتَافِيزِيقِيّ لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ إِلَى مَسَارٍ مَعْرِفِي وَأَخْلَاقِيّ وَرُوحِيَ لِتَحَقُّقِ الإِنْسَانِ بِكَمَالِهِ؟ويتفرع عنها عدد من الأسئلة:

- مَا الأُصُولُ المَفَاهِيمِيَّةُ وَالمَعْرِفِيَّةُ لِفِكْرَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؟
- كَيْفَ تَشَكَّلَ المَفْهُومُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي؟
- كَيْفَ أَعَادَ الجِيلِيُّ بِنَاءَ المَفْهُومِ وَتَوْسِيعَ دَلَالَاتِهِ؟
- مَا مَوْقِعُ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ فِي بِنَاءِ الذَّاتِ الكَامِلَةِ؟-
- مَا أَوْجُهُ الائْتِلَافِ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِي وَالجِيلِيّ في تصورهما للإنسان الكامل؟-
- هَلِ الكَمَالُ عِنْدَهُمَا مَقَامٌ نِهَائِيٌّ أَمْ سَيْرُورَةٌ رُوحِيَّةٌ مُتَجَدِّدَةٌ؟-
- مَا القِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ وَالأَخْلَاقِيَّةُ لِهَذَا التَّصَوُّرِ فِي فَهْمِ الإِنْسَانِ؟
- مَا الدَّلَالَاتُ الفَلْسَفِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ لِمَفْهُومَي الإِنْسَانِ وَالكَمَالِ؟
- مَا الجُذُورُ القُرْآنِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ وَالفِكْرِيَّةُ الَّتِي أَسْهَمَتْ فِي تَشَكُّلِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي التَّصَوُّفِ الإِسْلَامِي؟-
- مَا مَوْقِعُ مَفَاهِيمِ الخِلَافَةِ، وَالصُّورَةِ، وَالجَمْعِيَّةِ، وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ، وَالتَّجَلِّي فِي تَصَوُّرِ ابْنِ عَرَبِيّ لِلكَمَالِ الْإِنْسَانِي؟
- مَا مَرَاتِبُ الكَمَالِ وَالتَّحَقُّقِ عِنْدَ الجِيلِي، وَمَا صِلَتُهَا بِمَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالحَقِّ؟
- مَا دَوْرُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالمَعْرِفَةِ فِي صِنَاعَةِ الذَّاتِ الصُّوفِيَّة؟-

**فَرَضِيَّاتُ الْبَحْثِ:**

يَنْطَلِقُ البَحْثُ مِنْ جُمْلَةٍ مِنَ الفَرَضِيَّاتِ الَّتِي سَيَجْرِي اخْتِبَارُهَا مِنْ خِلَالِ النُّصوص الأَصْلِيَّة:

**الفَرَضِيَّةُ الأُولَى:** أَنَّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ لَا يُمْكِنُ اخْتِزَالُهُ فِي بِنَاءٍ مِيتَافِيزِيقِي، بَلْ يَحْمِلُ أَبْعَادًا مَعْرِفِيَّةً وَأَخْلَاقِيَّةً وَسُلُوكِيَّةً تُسْهِمُ فِي تَكْوِينِ الذَّاتِ.

**الفَرَضِيَّةُ الثَّانِيَة:** أَنَّ الكَمَالَ الإِنْسَانِيَّ فِي الرُّؤْيَةِ الصُّوفِيَّةِ لَا يَقُومُ عَلَى المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ عَلَى تَكَامُلِ المَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالسُّلُوكِ وَالتَّحَقُّق.

**الفَرَضِيَّةُ الثَّالِثَةِ:** أَنَّ الجِيلِيَّ، مَعَ انْتِمَائِهِ إِلَى الْأُفُقِ الْأَكْبَرِيّ، لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ النَّقْلِ عَنْ ابْنِ عَرَبِي، بَلْ يُعِيدُ صِيَاغَةَ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي بِنَاءٍ ذِي خُصُوصِيَّةٍ يَسْتَحِقُ المُقَارَنَةَ وَالتَّحْلِيلَ .

**الفَرَضِيَّةُ الرَّابِعَة:** أَنَّ بِنَاءَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ يَتَضَمَّنُ تَحَوُّلًا فِي بِنْيَةِ الذَّاتِ نَفْسِهَا؛ إِذْ تَنْتَقِلُ مِنْ سَيْطَرَةِ الهَوَى وَتَشَتُّتِ الرَّغَبَاتِ إِلَى تَحَقُّقٍ أَخْلَاقِيَ وَرُوحِي أَعْلَى.

**الفَرَضِيَّةُ الخَامِسَة:** أَنَّ المُقَارَنَةَ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ تَكْشِفُ عَنْ تَحَوُّلٍ دَاخِلَ التَّصَوُّفِ النَّظَرِيّ مِنْ تَأْسِيسِ مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ فِي الوُجُودِ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى مَرَاتِبِ تَحَوُّقِهِ بِالكَمَالِ؛ وَهِيَ فَرَضِيَّةٌ سَيَخْتَبِرُهَا البَحْثُ وَلَا يَفْتَرِضُ صِحَّتَهَا مُسْبَقًا.

**أهمية البَحْثِ:-**

تَتَجَلَّى أَهَمِّيَّةُ البَحْثِ فِي جَانِبَيْنِ:-

1. الأَهَمِّيَّةُ العِلْمِيَّةُ وَالنَّظَرِيَّةُ: تَكْمُنُ فِي إِعَادَةِ قِرَاءَةِ مَفْهُومٍ مَرْكَزِيَ فِي التَّصَوُّفِ الإِسْلَامِي مِنْ مَنْظُورٍ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّحْلِيلِ الصُّوفِي وَالمُقَارَبَةِ الفَلْسَفِيَّةِ، مَعَ التَّرْكِيزِ عَلَى فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ.
2. الأَهَمِّيَّةُ الفِكْرِيَّةُ: تَنْبَعُ مِنْ إِبْرَازِ أَنَّ التَّصَرُّفَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى تَجْرِبَةٍ وِجْدَانِيَّةٍ فَرْدِيَّةٍ، بَلْ يَحْمِلُ تَصَوُّرًا لِلإِنْسَانِ وَإِمْكَانَاتِ تَحَوُّلِهِ وَتَرَقِيهِ وَتَحَمُّلِهِ لِمَسْؤُولِيَّتِهِ الأَخْلَاقِيَّة.

أَهْدَافُ البَحْثِ:- يَهْدِفُ البَحْثُ إِلَى:

- تَأْصِيلِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فَلْسَفِيًّا وَصُوفِيًّا-.
- الكَشْفِ عَنْ أُسُسِ المَفْهُومِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ-.
- تَحْلِيلِ البِنَاءِ الَّذِي أَقَامَهُ الجِيلِيُّ لِلإِنْسَانِ الكَامِلِ-.
- تَحْدِيدِ مَوْقِعِ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالسُّلُوكِ فِي تَحَقُّقِ الكَمَالِ-.
- إِجْرَاءِ مُقَارَنَةٍ نَقْدِيَّةٍ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ-.
- الكَشْفِ عَنِ الْأَبْعَادِ الأَخْلَاقِيَّةِ لِنَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ-.
- إِبْرَازِ الصِّلَةِ بَيْنَ الكَمَالِ وَتَحَوُّلِ الذَّاتِ.
- بَيَانِ القِيمَةِ الفَلْسَفِيَّةِ لِلتَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ فِي بِنَاءِ الإِنْسَانِ-.

**هَيْكَلُ الْبَحْثِ:-**

**المَبْحَثُ الأَوَّلُ:** الإِنْسَانُ الكَامِلُ التَّأْصِيلُ المَفَاهِيمِيُّ وَالفَلْسَفِيُّ وَالصَّوفي

**المَبْحَثُ الثَّانِي:** الإِنْسَانُ الكَامِلُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيَّ؛ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى بِنَاءِ الذَّاتِ

**المَبْحَثُ الثَّالِثُ:** الإِنْسَانُ الكَامِلُ عِنْدَ عَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ؛ تَحَوُّلُ الذَّاتِ وَمَرَاتِبُ الكَمَالِ

**المَبْحَثُ الرَّابِعُ:** بِنَاءُ الذَّاتِ وَتَحَقُّقُ الكَمَالِ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيَ وَالجِيلِيَّ؛ مُقَارَبَةٌ فَلْسَفِيَّةٌ صَوفِيَّةٌ مُقَارَنَةٌ

**الفَجْوَةُ البَحْثِيَّة:-**

تَتَمَثَّلُ الفَجْوَةُ الَّتِي يَسْعَى الْبَحْثُ إِلَى مُعَالَجَتِهَا فِي أَنَّ دِرَاسَةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ كَثِيرًا مَا تَتَّجِهُ إِلَى بُعْدِهِ الوُجُودِي وَالْمِيتَافِيزِيقِيّ، فِي حِينِ تَسْعَى هَذِهِ الدِّرَاسَةُ إِلَى إِبْرَازِ البُعْدِ التَّكْوِينِي لِلذَّاتِ؛ أَي دِرَاسَةِ الكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُعَادُ بِهَا بِنَاءُ الإِنْسَانِ مِنْ دَاخِلِ التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ وَبِذَلِكَ تَنْتَقِلُ الدِّرَاسَةُ مِنْ الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِلَى فَلْسَفَةِ تَكَوُّنِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَتَهْذِيبِ الإِرَادَةِ، وَالتَّحَقُّقِ بِالقِيمِ، وَالارْتِقَاءِ مِنَ الوُجُودِ الطَّبِيعِي إِلَى الوُجُودِ الأَخْلَاقِيّ وَالرُّوحِي.

**مَنَهِجُ البَحْثِ:-**

يَعْتَمِدُ الْبَحْثُ عَلَى:

- المَنْهَج التَّحْلِيلِي: لِتَحْلِيلِ نُصُوصِ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ وَمَفَاهِيمِهِمَا .
- والمَنْهَج المُقَارَنِ: لِبَيَانِ مَوَاضِعِ الائْتِلَافِ وَالاخْتِلَافِ.
- والمَنْهَج التَّأْوِيلِيّ: لِلكَشْفِ عَنِ الدَّلَالَاتِ الفَلْسَفِيَّةِ الكَامِنَةِ فِي النُّصُوص الصُّوفِيَّةِ.

حيث يَنْطَلِقُ البَحْثُ مِنْ فَرْضِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ لَا يَنْبَغِي اخْتِزَالُهُ فِي نَظَرِيَّةٍ مِيتَافِيزِيقِيَّةٍ عَنْ مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ فِي الوُجُودِ، بَلْ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا صُوفِيًّا لِتَحَوُّلِ الذَّاتِ، تَتَكَامَلُ فِيهِ المَعْرِفَةُ وَالتَّزْكِيَةُ وَالأَخْلَاقُ وَالتَّحَقُّقُ الرُّوحِيُّ.

**مُقَدِّمَةُ البَحْثِ:**

يَحْتَلُ الإِنْسَانُ مَوْقِعًا مَرْكَزِيًّا فِي التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ الإِسْلَامِيَّة؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ سُؤَالُ الصُّوفِيَّةِ مُنْحَصِرًا فِي مَعْرِفَةِ العَالَمِ وَتَفْسِيرِ الوُجُودِ، بَلْ كَانَ، فِي جَوْهَرِهِ، سُؤَالًا عَنِ الإِنْسَانِ نَفْسِهِ: مَنْ هُوَ؟ وَمَا حَقِيقَتُهُ؟ وَمَا الغَايَةُ مِنْ وُجُودِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَجَاوَزَ نَقْصَهُ وَتَشَتُّتَهُ لِيَبْلُغَ مَرَاتِبَ التَّحَقُّقِ وَالكَمَالِ؟ وَمِنْ هُنَا، لَمْ يَتَشَكَّلْ مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي الفِكْرِ الصُّوفِي بَوْصْفِهِ مَفْهُومًا نَظَرِيًّا مُجَرَّدًا، بَلْ ارْتَبَطَ بِرُؤْيَةٍ شَامِلَةٍ لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ وَمَكَانَتِهِ فِي الوُجُودِ، وَبِمَسَارٍ رُوحِي وَمَعْرِفِيّ يَسْعَى مِنْ خِلَالِهِ السَّالِكُ إِلَى تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ، وَتَصْفِيَةِ قَلْبِهِ، وَتَهْذِيبِ إِرَادَتِهِ، وَتَحْقِيقِ العُبُودِيَّةِ وَالارْتِقَاءِ فِي مَدَارِجِ المَعْرِفَةِ وَالإِحْسَانِ. وَإِذَا كَانَ الفِكْرُ الفَلْسَفِي قَدْ طَرَحَ، مُنْذُ القِدَمِ، سُؤَالَ الكَمَالِ الإِنْسَانِيّ مِنْ خِلَالِ البَحْثِ فِي الفَضِيلَةِ وَالسَّعَادَةِ وَالعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ وَغَايَةِ الوُجُودِ الإِنْسَانِي، فَإِنَّ التَّصَوُّف الإِسْلَامِيّ أَعَادَ صِيَاغَةَ هَذَا السُّؤَالِ فِي ضَوْءِ تَجْرِبَةٍ رُوحِيَّةٍ تَجْعَلُ مِنَ الإِنْسَانِ ذَاتًا قَابِلَةً لِلتَّحَوُّلِ وَالتَّرَقِّي، لَا كَائِنًا مُكْتَمِلًا مُنْذُ البِدَايَةِ. فَالكَمَالُ، مِنْ هَذَا المَنْظُور، لَيْسَ مُعْطًى ثَابِتًا، وَلَا صِفَةً تُضَافُ إِلَى الإِنْسَانِ مِنْ خَارِجِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَسَارُ تَحَقُّقٍ يَتَطَلَّبُ عَمَلًا دَاخِلِيًّا مُسْتَمِرًّا عَلَى النَّفْسِ، وَتَحَوُّلًا فِي المَعْرِفَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَطَرِيقَةِ الحُضُورِ فِي العَالَمِ.

وَهُنَا تَبْرُزُ الأَهَمِّيَّةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِمَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ لِأَنَّهُ يَضَعُنَا أَمَامَ سُؤَالٍ يَتَجَاوَزُ الوَصْف الصُّوفِيّ لِلْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ إِلَى سُؤَالٍ أَعْمَقَ: كَيْفَ تَتَكَوَّنُ الذَّاتُ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُعِيدَ بِنَاءَ نَفْسِهِ وَيَنْتَقِلَ مِنْ إِمْكَانِ الكَمَالِ إِلَى التَّحَقُّقِ بِهِ؟ وَيَكْتَسِبُ هَذَا السُّؤَالُ خُصُوصِيَّةً أَكْبَرَ فِي تَجْرِبَةِ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ عَرَبِيّ؛ إِذْ أَصْبَحَ الإِنْسَانُ فِي بِنَائِهِ الفِكْرِي وَالصُّوفِي مِحْوَرًا لِفَهْمِ العَلَاقَةِ بَيْنَ الْحَقّ وَالخَلْق، وَبَيْنَ الوَحْدَةِ وَالكَثْرَةِ، وَبَيْنَ الأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَتَجَلِّيَاتِهَا فِي الوُجُودِ. وَيَظْهَرُ ذَلِكَ بِوُضُوحٍ فِي حديثه عَنْ آدَمَ، وَالخِلَافَةِ، وَالجَمْعِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَالصُّورَةِ، وَمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ فِي نِظَامِ الوُجُودِ.1

وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ لَا يُفْهَمُ فِي إِطَارِ التَّفَوُّقِ الأَخْلَاقِي وَحْدَهُ، بَلْ يَرْتَبِطُ بِرُؤْيَةٍ أَنْطُولُوجِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ أَوْسَعَ؛ فَهُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي تَتَجَلَّى فِيهِ مَعَانِي الجَمْعِيَّةِ، وَيَتَحَقَّقُ بِمَقَامِ العُبُودِيَّةِ، وَيَغْدُو وُجُودُهُ مَوْضِعًا لِفَهْمِ الصِّلَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالكَوْنِ وَالحَقّ .

وَإِذَا كَانَ ابْنُ عَرَبِيّ قَدْ أَرْسَى أُسُسًا عَمِيقَةً لِهَذَا التَّصَوُّرِ فِي أَعْمَالِهِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا فُصُوصُ الحِكَمِ وَ*«الفُتُوحَاتُ المَكِّيَّةُ»*، فَإِنَّ عَبْدَ الكَرِيمِ الجِيلِيَّ قَدْ جَعَلَ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مَحْوَرًا صَرِيحًا لِبِنَائِهِ الصُّوفِيّ، وَلَا سِيَّمَا فِي كِتَابِهِ الإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَوَاخِرِ وَالأَوَائِلِ»2. وَيَكْشِفُ هَذَا الامْتِدَادُ عَنْ صِلَةٍ فِكْرِيَّةٍ بَيْنَ التَّجْرِبَتَيْنِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعْنِي أَنْ نَظَرِيَّةَ الجِيلِيّ مُجَرَّدُ تَكْرَارٍ لِمَا وَرَدَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ؛ فَالجِيلِيُّ يُعِيدُ تَرْتِيبَ جُمْلَةٍ مِنَ المَفَاهِيمِ وَيَمْنَحُهَا بِنَاءً أَكْثَرَ تَرْكِيزًا حَوْلَ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ وَمَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ المُقَارَنَةَ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ لَا تَنْبَغِي أَنْ تَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ التَّأَثُّر وَالتَّأْثِير، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَتَّجه إِلَى الكَشْفِ عَنِ البِنْيَةِ الفَلْسَفِيَّةِ لِتَكَوُّنِ الذَّاتِ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَ كُلّ مِنْهُمَا: مَا الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْسَانَ قَابِلًا لِلكَمَالِ؟ وَمَا دَوْرُ المَعْرِفَةِ فِي ذَلِكَ؟ وَمَا مَوْقِعُ التَّزْكِيَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالسُّلُوكِ وَالمُجَاهَدَةِ؟ وَهَلِ الْكَمَالُ نِهَايَةٌ يَبْلُغُهَا السَّالِكُ، أَمْ أَنَّهُ حَرَكَةُ تَحَقُّقٍ مُسْتَمِرَّةٌ؟ وَمِنْ هَذَا المُنْطَلَق، يَسْعَى هَذَا الْبَحْثُ إِلَى تَجَاوُزِ القِرَاءَةِ الَّتِي تَحْصُرُ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي إِطَارِهِ المِيتَافِيزِيقِيّ، لِيَبْحَثَ فِي فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ الكَامِنَةِ وَرَاءَهُ؛ أَي فِي الآلِيَّاتِ الرُّوحِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ

وَالأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي يَنْتَقِلُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ حَالِ التَّشَتُّتِ وَالخُضُوع لِدَوَافِعِ النَّفْسِ إِلَى حَالِ الجَمْعِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ. وَبِهَذَا المَعْنَى، يُصْبِحُ الكَمَالُ الإِنْسَانِيُّ مَسْأَلَةً تَتَّصِلُ بِالحُرِّيَّةِ اتِّصَالَهَا بِالعُبُودِيَّةِ؛ لأَنَّ تَحْرِيرَ الذَّاتِ فِي الرُّؤْيَةِ الصُّوفِيَّةِ لَا يَعْنِي تَحْرِيرَهَا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ، وَإِنَّمَا تَحْرِيرُهَا مِنْ سُلْطَةِ الهَوَى وَالاسْتِعْبَادِ الدَّاخِلِي، لِتَتَحَقَّقَ بِالعُبُودِيَّةِ الوَاعِيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُنَا يَتَحَوَّلُ السُّلُوكُ الصُّوفِيُّ إِلَى عَمَلِيَّةِ إِعَادَةِ تَشْكِيلٍ لِلإِرَادَةِ، لَا إِلَى مُجَرَّدِ انْسِحَابٍ مِنَ العَالَمِ.

وَتَكْمُنُ القِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِهَذِهِ المُقَارَبَةِ فِي أَنَّهَا تَكْشِفُ عَنْ أَنَّ التَّصَوُّف، فِي نَمَاذِجِهِ النَّاضِجَةِ، يَحْمِلُ تَصَوُّرًا خَاصًّا لِصِنَاعَةِ الإِنْسَانِ؛ فَالْإِنْسَانُ لَا يَكْتَفِي بِمَعْرِفَةِ الحَقِيقَةِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَوَّلَ هُوَ نَفْسُهُ بِفِعْلِ هَذِهِ المَعْرِفَةِ. وَمِنْ ثَمَّ، لَا تَعُودُ المَعْرِفَةُ مَعْلُومَاتٍ عَنِ الحَقِّ، بَلْ تَصِيرُ تَحَقُّقًا؛ وَلَا تَعُودُ الأَخْلَاقُ قَوَاعِدَ خَارِجِيَّةً، بَلْ تَغْدُو هَيْئَةً لِلذَّاتِ؛ وَلَا يَعُودُ الكَمَالُ مَفْهُومًا، بَلْ يَغْدُو طَرِيقَةً فِي الوُجُودِ. وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ، يَتَّخِذُ البَحْثُ مِنْ نُصُوصِ ابْنِ عَرَبِي وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيِّ مَادَّةً أَصْلِيَّةً لِلتَّحْلِيلِ، مُسْتَعِينًا بِالمَنْهَجِ التَّحْلِيلِي وَالمُقَارَنِ وَالتَّأْوِيلِي وَالنَّقْدِي؛ لِلكَشْفِ عَنْ طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، وَمَرَاتِبِ تَحَقُّقِهِ، وَعَلَاقَةِ الكَمَالِ بِالمَعْرِفَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالإِرَادَةِ وَالسُّلُوكِ الرُّوحِيِّ. وَلَعَلَّ الرِّهَانَ الأَسَاسِيَّ لِهَذِهِ الدِّرَاسَةِ يَكْمُنُ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ سُؤَالَ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ لَيْسَ سُؤَالًا عَنْ نَمُوذَجٍ صُوفِيٍّ مُتَعَالٍ عَنِ التَّجْرِبَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ هُوَ فِي أَحَدِ أَعْمَقِ أَبْعَادِهِ، سُؤَالٌ عَنْ إِمْكَانِ الإِنْسَانِ: كَيْفَ يَخْرُجُ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ إِلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَهُ؟ وَكَيْفَ يَصِيرُ الكَمَالُ فِعْلًا فِي الذَّاتِ بَعْدَ أَنْ كَانَ إِمْكَانًا فِيهَا؟ وَبِذَلِكَ، تَتَحَدَّدُ وَجْهَةُ الْبَحْثِ فِي دِرَاسَةِ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا بَوْصْفِهِ مَفْهُومًا صُوفِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا فَلْسَفِيًّا صُوفِيًّا فِي بِنَاءِ الذَّاتِ وَتَحْقِيقِ الكَمَالِ الإِنْسَان. حيث يَسْتَدْعِي البَحْثُ فِي مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ عَرَبِيِّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيِّ مُرَاجَعَةَ مَا تَرَاكَمَ حَوْلَ هَذَا المَوْضُوعِ مِنْ دِرَاسَاتٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ المَفْهُومَ يَقَعُ فِي مَنْطِقَةِ تَقَاطُعٍ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالفَلْسَفَةِ وَالأَخْلَاقِ، وَيَرْتَبِطُ بِقَضَايَا الوُجُودِ وَالمَعْرِفَةِ وَالوِلَايَةِ وَالخِلَافَةِ وَالتَّجَلِّي وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ..

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ فِكْرَ ابْنِ عَرَبِي وَالجِيلِي، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفِي إِمْكَانَ إِعَادَةِ قِرَاءَةِ مَفْهُومِ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ زَاوِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ إِذْ إِنَّ أَصَالَةَ البَحْثِ لَا تَقُومُ دَائِمًا عَلَى اكْتِشَافِ مَوْضُوعٍ لَمْ يُدْرَس بَلْ قَدْ تَقُومُ عَلَى إِعَادَةِ صِيَاغَةِ السُّؤَالِ الَّذِي نُوَاجِهُ بِهِ النُّصُوصَ وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ لَا تَسْأَلُ فَقَطْ: مَا الإِنْسَانُ الكَامِلُ؟ بَلْ تَسْأَلُ، عَلَى نَحْوٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا: كَيْفَ تَتَكَوَّنُ الذَّاتُ القَادِرَةُ عَلَى التَّحَقُّقِ بِالكَمَالِ. حيث يتجه البحث إلى مَسْأَلَةٍ مهمة، وهِيَ: كَيْفَ يَنْعَكِسُ هَذَا البِنَاءُ الْوُجُودِيُّ عَلَى تَكَوُّنِ الذَّاتِ وَالسُّلُوكِ وَالتَّحَقُّقِ؟ وَتَفْسِيرِ الأُسُسِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا تَصَوُّرُ الكَمَالِ الإِنْسَانِي؛ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ مَا يَجْعَلُ الإِنْسَانَ مُمَيَّزًا فِي النِّظَامِ الوُجُودِي تَسْبِقُ مَنْطِقِيًّا البَحْثَ فِي كَيْفِيَّةِ تَحَقُّقِهِ بِهَذَا الكَمَالِ. وَالمَسْأَلَةُ الَّتِي يَسْعَى البَحْثُ الرَّاهِنُ إِلَى تَعْمِيقِهَا هي الانتِقَالُ مِنْ مَكَانَةِ الإِنْسَانِ إِلَى صَيْرُورَةِ الإِنْسَانِ؛ أَيْ مِنَ السُّؤَالِ عَنْ مَرْتَبَتِهِ إِلَى السُّؤَالِ عَنْ مَسَارِ تَكَوُّنِهِ الرُّوحِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ .

**المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِنْسَانُ الكَامِلُ: التَّأْصِيلُ المَفَاهِيمِيُّ وَالفَلْسَفِيُّ وَالصُّوفي:-**

**تَمْهِيدٌ:**

يُمَثِّلُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ وَاحِدًا مِنْ أَكْثَرِ المَفَاهِيمِ عُمْقًا وَتَرْكِيبًا فِي التَّصَوُّفِ الإِسْلَامِي؛ إِذْ تَتَقَاطَعُ فِيهِ أَسْئِلَةُ الوُجُودِ وَالمَعْرِفَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالوِلَايَةِ وَالتَّحَقُّقِ الرُّوحِيِّ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ دِرَاسَتَهُ لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ تَعْرِيفٍ مُصْطَلَحٍ صُوفِي، بَلْ تَنْفَتِحُ عَلَى سُؤَالٍ فَلْسَفِي أَعْمَقَ: مَا الإِنْسَانُ؟ وَمَا غَايَةُ وُجُودِهِ؟ وَكَيْفَ يَنْتَقِلُ مِنْ إِمْكَانِ الْكَمَالِ إِلَى التَّحَقُّقِ بِهِ؟ وَيَكْتَسِبُ هَذَا السُّؤَالُ أَهَمِّيَّةً خَاصَّةً عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ عَرَبِيِّ؛ إِذْ يَرْتَبِطُ الإِنْسَانُ فِي بِنَائِهِ الفِكْرِي بِمَفَاهِيمِ الجَمْعِيَّةِ وَالخِلَافَةِ وَالصُّورَةِ وَالتَّجَلِّي وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ. وَيُفَسِّرُ أَبُو العَلَا عَفِيفِي «الكَلِمَةَ الْآدَمِيَّةَ» عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي بِالحَقِيقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَيَرْبِطُهَا بِكَوْنِ الْإِنْسَانِ «الكَوْنَ الجَامِعَ» وَبِاسْتِحْقَاقِهِ مَرْتَبَةَ الخِلَافَةِ1.(ابن عربي،1946،ص93 ) ثُمَّ يَبْلُغُ المَفْهُومُ دَرَجَةً أَكْثَرَ وُضُوحًا وَمَرْكَزِيَّةً عِنْدَ عَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيِّ؛ حَيْثُ جَعَلَهُ مَوْضُوعًا لِكِتَابِهِ «الإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الأَوَاخِرِ وَالأَوَائِلِ»، وَخَصَّصَ فِيهِ أَبْوَابًا لِلكَمَالِ وَالنَّفْسِ وَالقَلْبِ وَالعَقْلِ، ثُمَّ جَعَلَ بَابَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ «عُمْدَةَ أَبْوَابِ» الكِتَابِ2. (الجيلي،1997،ص207 ) وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ، يَسْعَى هَذَا المَبْحَثُ إِلَى تَأْصِيلِ المَفْهُومِ قَبْلَ دِرَاسَةِ تَجَلِّيَاتِهِ

عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثَةِ مَطَالِبَ: الأَوَّلُ فِي الدَّلَالَاتِ المَفَاهِيمِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ، وَالثَّانِي فِي الجُذُورِ الرُّوحِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ، وَالثَّالِثُ فِي الانتِقَالِ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ إِلَى فَلْسَفَةِ تَحَقُّقِ الكَمَالِ.

**المَطْلَبُ الأَوَّلُ : مَفْهُومُ الإِنْسَانِ وَالكَمَالِ بَيْنَ الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ:**

أَوَّلاً: الإِنْسَانُ فِي الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَالمَفْهُومِيَّةِ: يُعَدُّ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ مِنَ المَفَاهِيمِ الَّتِي يَصْعُبُ اخْتِزَالُهَا فِي حَدٍ وَاحِدٍ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ لَيْسَ مَوْضُوعًا خَارِجِيًّا يَتَأَمَّلُهُ العَقْلُ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ الذَّاتُ الَّتِي تَسْأَلُ عَنْ نَفْسِهَا، وَعَنْ أَصْلِهَا وَغَايَتِهَا وَمَصِيرِهَا. وَقَدْ دَارَتْ دَلَالَةُ «الإِنْسِ» فِي اللُّغَةِ حَوْلَ مَعَانِي الظُّهُورِ وَالأُنْسِ وَالأُلْفَةِ وَمَا يُقَابِلُ الوَحْشَةَ، وَهُوَ مَا يَفْتَحُ المَفْهُومَ عَلَى بُعْدٍ عِلَاقِيّ؛ فَالإِنْسَانُ لَا يَتَحَقَّقُ فِي عُزْلَةٍ، وَإِنَّمَا يَنْكَشِفُ وُجُودُهُ فِي عِلَاقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ وَبِالْعَالَمِ وَبِخَالِقِهِ1.(ابن منظور،1993 ،ص234 ) وَيَكْتَسِبُ هَذَا البُعْدُ دَلَالَةً أَعْمَقَ فِي التَّصَوُّفِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُقْرَأُ بَوْصْفِهِ مُجَرَّدَ كَائِنٍ عَاقِلٍ، بَلْ بَوْصْفِهِ ذَاتًا قَابِلَةً لِلتَّحَوُّلِ، تَنْتَقِلُ بِالتَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالمَعْرِفَةِ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أُخْرَى وَهَذَا مَا يَجْعَلُ السُّؤَالَ عَنِ الإِنْسَانِ فِي التَّصَوُّفِ مُزْدَوَجًا: مَا حَقِيقَةُ الإِنْسَانِ؟ وَمَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ إِلَيْهِ؟

ثَانِيًا: مَفْهُومُ الكَمَالِ: يَدُورُ مَعْنَى الكَمَالِ حَوْلَ التَّمَامِ وَبُلُوغِ الشَّيْءِ مَا بِهِ تَتَحَقَّقُ غَايَتُهُ2. (ابن منظور،1993 ،ص345 ) وَغَيْرُ خَافٍ أَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ يَكْتَسِبُ تَعْقِيدًا إِضَافِيًّا عِنْدَمَا يَكُونُ مَوْضُوعُهُ هُوَ الإِنْسَانَ؛ لِأَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ لَا يُقَاسُ بِاكْتِمَالِ نُمُوهِ الجَسَدِيّ، بَلْ يَرْتَبِطُ بِالعَقْلِ وَالإِرَادَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالغَايَةِ. وَيُفْضِي ذَلِكَ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الكَمَالِ بِالقُوَّةِ وَالكَمَالِ بِالْفِعْلِ؛ فَقَدْ يَحْمِلُ الإِنْسَانُ فِي تَكْوِينِهِ إِمْكَانَاتٍ عَالِيَةً، غَيْرَ أَنَّ وُجُودَ الإِمْكَانِ لَا يَعْنِي تَحَقُّقَهُ. وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ تَكْتَسِبُ أَهَمِّيَّةً خَاصَّةً فِي نَصّ الجيلي؛ إِذْ يُمَيِّزُ، عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ النَّوْعِ الإِنْسَانِي، بَيْنَ مَنْ تَكُونُ الْأَشْيَاءُ فِيهِ «بِالقُوَّةِ» وَمَنْ تَكُونُ فِيهِ «بِالفِعْلِ»، وَيَجْعَلُ الصِّنْفَ الثَّانِي مِنَ الكُمَّلِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ1.(الجيلي،1997 ،ص207 ) وهذا نص شديد الأهمية لفرضية البحث؛ لأنه يتيح الانتقال من الحديث عن ماهية الإنسان إلى البحث في تحققه بالكمال.

ثَالِثًا: الكَمَالُ فِي الأُفُقِ الفَلْسَفِي: يَرْتَبِطُ مَفْهُومُ الكَمَالِ فَلْسَفِيًّا بِمَفْهُومِ الغَايَةِ؛ فَالسُّؤَالُ عَنْ كَمَالِ الإِنْسَانِ هُوَ، فِي جَوْهَرِهِ، سُؤَالٌ عَنِ الغَايَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَّجِهَ إِلَيْهَا الوُجُودُ الإِنْسَانِيُّ. وَمِنْ هُنَا ارْتَبَطَ الكَمَالُ فِي الفَلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِمَفَاهِيمِ السَّعَادَةِ وَالفَضِيلَةِ وَتَحْصِيلِ المَعْرِفَةِ وَتَهْذِيبِ الأَخْلَاقِ، وَغَدَا الإِنْسَانُ كَائِنًا لَا يَكْتَفِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ، بَلْ يَسْعَى إِلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ. وَلَكِنَّ التَّصَوُّف يُدْخِلُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ تَحَوُّلًا مُهِمًّا؛ فَالكَمَالُ لَا يَعُودُ تَحْصِيلًا نَظَرِيًّا لِلفَضِيلَةِ وَالمَعْرِفَةِ فَحَسْبُ، بَلْ يُصْبِحُ تَجْرِبَةً تَحَوُّلٍ فِي الذَّاتِ نَفْسِهَا. وَهُنَا يَنْتَقِلُ سُؤَالُ الكَمَالِ مِنْ: مَاذَا يَعْرِفُ الإِنْسَانُ؟ إِلَى: مَاذَا يَصِيرُ الإِنْسَانُ بِمَا يَعْرِفُ؟

رَابِعًا: الكَمَالُ فِي الرُّؤْيَةِ الصُّوفِيَّةِ: لَا يَتَحَقَّقُ الكَمَالُ فِي التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ بِمُجَرَّدِ امْتِلَاكِ المَعْرِفَةِ، بَلْ يَقْتَضِي تَحَوُّلَ المَعْرِفَةِ إِلَى حَالٍ وَخُلُقٍ وَمَقَامٍ وَسُلُوكٍ وَمِنْ هُنَا تَأْتِي مَرْكَزِيَّةُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ؛ إِذْ تُمَثِّلُ العَمَلِيَّةَ الَّتِي يَتَجَاوَزُ بِهَا الإِنْسَانُ هَيْمَنَةَ الهَوَى وَالتَّشَتُّتَ الدَّاخِلِيَّ، وَيُعِيدُ تَوْجِيهَ إِرَادَتِهِ نَحْوَ غَايَةٍ أَعْلَى. وَيَظْهَرُ هَذَا المَعْنَى بوضوحٍ عِنْدَ الجِيلِيّ فِي تَحْلِيلِهِ لِمَرَاتِبِ النَّفْسِ؛ فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، ثُمَّ اللَّوَّامَةِ، ثُمَّ المُطْمَئِنَّةِ، وَيَرْبِطُ الاطْمِئْنَانَ بِقَطْعِ الأَفْعَالِ وَالخَوَاطِرِ المَذْمُومَةِ، ثُمَّ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَرْتَبَةٍ أَعْلَى مِنَ التَّحَقُّقِ6.(الجيلي،1997 ،ص207 ) وَهَذَا التَّدَرُّجُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الذَّاتَ الصُّوفِيَّةَ لَا تُعْطَى فِي صُورَتِهَا الكَامِلَةِ مُنْذُ البِدَايَةِ، بَلْ تُبْنَى، وَأَنَّ الكَمَالَ لَيْسَ صِفَةً سَاكِنَةً، بَلْ صَيْرُورَةٌ رُوحِيَّةٌ.

خَامِسًا: ابْنُ عَرَبِيّ وَالانتِقَالُ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَى «الْكَوْنِ الجَامِعِ»: يَحْدُثُ تَحَوُّلٌ عَمِيقٌ فِي دَلَالَةِ الإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ؛ فَلَا يَعُودُ الكَمَالُ مُرْتَبِطًا فَقَطْ بِتَهْذِيبِ الأَخْلَاقِ، بَلْ يَرْتَبِطُ بِمَوْقِعِ الإِنْسَانِ فِي نِظَامِ الوُجُودِ. وَيَفْتَتِحُ ابْنُ عَرَبِي الفَصَّ الأَدَمِيَّ بِبِنَاءٍ يَرْبِطُ ظُهُورَ العَالَمِ بِالْأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَبِوُجُودِ «كَوْنٍ جَامِعٍ» يَحْصُرُ الْأَمْرَ؛ وَهَذَا «الكَوْنُ الجَامِعُ» هُوَ الَّذِي يُمَهِّدُ لِفَهْمِ المَكَانَةِ الخَاصَّةِ لِلإِنْسَانِ فِي البِنَاءِ الْأَكْبَرِي1.(ابن عربي،1946 ،ص298 ) وَيُفَسِّرُ عَفِيفِي هَذَا البِنَاءَ بِأَنَّ النَّشْأَةَ الإِنْسَانِيَّةَ تَجْمَعُ أَبْعَادًا مُتَعَدِّدَةً، وَأَنَّ هَذِهِ الجَمْعِيَّةَ هِيَ الَّتِي تُفَسِرُ اسْتِحْقَاقَ الإِنْسَانِ مَرْتَبَةَ الخِلَافَةِ2(عفيفي،1946 ،ص276 ) وَبِذَلِكَ يَنْتَقِلُ مَفْهُومُ الكَمَالِ مِنْ مَسْتَوَى أَخْلَاقِيّ مَحْضٍ إِلَى مَسْتَوَى وُجُودِيّ مَعْرِفِي رُوحِي.

سَادِسًا: الجِيلِيُّ وَالإِنْسَانُ الكَامِلُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ: يَتَّخِذُ المَفْهُومُ عِنْدَ الجيليّ صُورَةً أَكْثَرَ صَرَاحَةً. فَفِي البَابِ المُخَصَّص لِلإِنْسَانِ الكَامِلِ يَقرّرُ أَنَّ هَذَا البَابَ هُوَ عُمْدَةُ أَبْوَابِ الْكِتَابِ، بَلْ يَجْعَلُ مَا سَبَقَهُ مِنَ الكِتَابِ تَمْهِيدًا لِفَهْمِهِ3.(الجيلي،1997 ،ص207 ) وَيَكْشِفُ النَّص الجيلِيُّ عَنْ تَمْيِيزٍ فَلْسَفِي شَدِيدِ الأَهَمِّيَّة؛ فَأَفْرَادُ النَّوْعِ الإِنْسَانِي يَشْتَرِكُونَ فِي أَصْلِ القَابِلِيَّة، وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي دَرَجَةِ تَحَقُّقِ مَا فِيهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ تَبْقَى كَمَالَاتُهُ بِالقُوَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَصِيرُ فِيهِ بِالْفِعْلِ4 وَهُنَا تَظْهَرُ إِحْدَى النِّقَاطِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَبْنِيَ عَلَيْهَا هَذَا البَحْثُ أَصَالَتَهُ؛ فَالإِنْسَانُ الكَامِلُ لَا يُقْرَأُ فَقَطْ مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ، بَلْ مِنْ حَيْثُ كَيْفَ تَحَقَّقَ بِمَا هُوَ قَابِلٌ لَهُ. وَيَبْلُغُ الجِيلِيُّ ذُرْوَةَ هَذَا التَّصَوُّرِ حِينَ يَجْعَلُ النَّمُوذَجَ الأَكْمَلَ لِلإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي الحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ، وَيَرَى أَنَّ الكُمَّلَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى هَذَا النُّمُوذَجِ عَلَى دَرجات5. (الجيلي،1997 ،ص207 )

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الأَوَّلِ :**

يَتَّضِحُ أَنَّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ إِلَى مَعْنَى التَّمَامِ الأَخْلَاقِيّ فَحَسْبُ، بَلْ يَنْطَوِي عَلَى بِنَاءٍ مُرَكَّبٍ تَتَدَاخَلُ فِيهِ الأَبْعَادُ الوُجُودِيَّةُ وَالمَعْرِفِيَّةُ وَالأَخْلَاقِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ. وَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي، يَرْتَبِطُ الإِنْسَانُ بِمَفْهُومِ الكَوْنِ الجَامِعِ وَبِالخِلَافَةِ وَالجَمْعِيَّةِ، بَيْنَمَا يُعِيدُ الجِيلِيُّ صِيَاغَةَ المَسْأَلَةِ فِي بِنَاءٍ أَكْثَرَ تَرْكِيزًا عَلَى «الْإِنْسَانِ الكَامِلِ»، وَيُقَدِّمُ تَمْيِيزًا مُهِمًّا بَيْنَ مَا يَكُونُ فِي الإِنْسَانِ بِالقُوَّةِ وَمَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ بِالْفِعْلِ. وَهَذَا التَّمْيِيزُ يَسْمَحُ لِلْبَحْثِ بِالانْتِقَالِ مِنْ أُنْطُولُوجِيَا الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِلَى فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ الكَامِلَةِ، أَيْ مِنَ السُّؤَالِ: «مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ؟» إِلَى السُّؤَالِ الأَعْمَقِ: «كَيْفَ يَصِيرُ الإِنْسَانُ كَامِلا؟«

**المَطْلَبُ الثَّانِي: الجُذُورُ الرَّوحِيَّةُ وَالمَعْرِفِيَّةُ لِفِكْرَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي التَّصَوُّفِ الإِسْلَامِي:-:**

لَمْ يَظْهَرْ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيّ فَجْأَةً فِي صُورَتِهِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي نَجِدُهَا عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ عَرَبِي، ثُمَّ عِنْدَ عَبْدِ الكَرِيم الجيلي، بَلْ سَبَقَتْهُ مَرَاحِلُ طَوِيلَةٌ مِنَ التَّشَكُّلِ الرُّوحِيّ وَالْأَخْلَاقِيّ وَالمَعْرِفِي. فَقَدْ تَضَمَّنَ التُّرَاثُ الصُّوفِيُّ المُبَكِّرُ مَفَاهِيمَ التَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالمُرَاقَبَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالوِلَايَةِ وَالْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ، وَهِيَ مَفَاهِيمُ أَسْهَمَتْ بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، فِي تَهْيِئَةِ الأَرْضِيَّةِ الَّتِي سَيَتَشَكَّلُ فِيهَا تَصَوُّرُ الكَمَالِ الإِنْسَانِي1.(الطوسي،1960 ،ص65 ) وَمِنْ هُنَا، لَا يَنْبَغِي قِرَاءَةُ نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بِوَصْفِهَا قَطِيعَةً مَعَ التَّصَوُّفِ السُّلُوكِيّ، بَلْ يُمْكِنُ النَّظَرُ إِلَيْهَا بَوْصْفِهَا إِعَادَةَ صِيَاغَةٍ وُجُودِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ لِسُؤَالٍ صُوفِي قَدِيمٍ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الإِنْسَانُ؟ وَإِلَى أَي مَرْتَبَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَ؟

**أَوَّلاً: التَّزْكِيَةُ وَبِنَاءُ الذَّاتِ الصُّوفِيَّةِ:-:**

تُمَثِّلُ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ الأَسَاسَ العَمَلِيَّ الَّذِي انْطَلَقَ مِنْهُ التَّصَوُّفُ فِي تَصَوُّرِهِ لِتَحَوُّلِ الإِنْسَانِ؛ فَالنَّفْسُ لَيْسَتْ حَقِيقَةً ثَابِتَةً لَا تَقْبَلُ التَّغْيِيرَ، قَابِلَةٌ لِلتَّهْذِيبِ وَالتَّطْهِيرِ وَالتَّرَقِي. وَلِذَلِكَ احْتَلَّتِ المُجَاهَدَةُ بَلْ هِيَ وَالمُرَاقَبَةُ وَالمُحَاسَبَةُ وَالتَّوْبَةُ وَالصَّبْرُ وَالزُّهْدُ وَالتَّوَكُّلُ مَوْقِعًا مَرْكَزِيًّا فِي مُدَوَّنَاتِ التَّصَوُّفِ المُبَكِّرِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُفْهَمْ بَوْصْفِهَا فَضَائِلَ مُنْفَصِلَةً، بَلْ بَوْصْفِهَا مَرَاحِلَ فِي إِعَادَةِ تَشْكِيلِ الذَّاتِ2.(القشيري،1972 ،ص208 )وَيَكْمُنُ البُعْدُ الفَلْسَفِيُّ لِلتَّزْكِيَةِ فِي أَنَّهَا تَنْقُلُ الإِنْسَانَ مِنْ حَالَةِ الخُضُوعِ التِّلْقَائِي لِلرَّغْبَةِ إِلَى حَالَةٍ يُصْبِحُ فِيهَا قَادِرًا عَلَى مُرَاقَبَةِ نَفْسِهِ وَتَقْوِيمِهَا وَإِعَادَةِ تَوْجِيهِهَا وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ بِنَاءَ الذَّاتِ الصُّوفِيَّةِ لَا يَقُومُ عَلَى إِلْغَاءِ الإِنْسَانِ، بَلْ عَلَى تَحْرِيرِهِ مِنْ هَيْمَنَةِ مَا يَحْجُبُهُ عَنْ غَايَتِهِ.

**ثَانِيَا: المَقَامَاتُ وَالأَحْوَالُ وَفَلْسَفَةُ التَّرَقِي:**

أَسْهَمَ تَشَكُّلُ نَظَرِيَّةِ المَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ فِي إِدْخَالِ فِكْرَةِ التَّدَرُّجِ فِي صَمِيمِ التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ؛ فَالسَّالِكُ لَا يَبْلُغُ غَايَتَهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ يَتَنَقَّلُ فِي مَرَاتِبَ مُتَدَرِّجَةٍ مِنَ التَّوْبَةِ وَالوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالرِّضَا وَغَيْرِهَا1.) القشيري،1972 ،ص203 ) وَهَذَا التَّدَرُّجُ يَكْشِفُ عَنْ رُؤْيَةٍ مُهِمَّةٍ لِلإِنْسَانِ؛ فَهُوَ كَائِنٌ فِي حَالَةِ صَيْرُورَةٍ، وَهُوَ لَا يُعَرَّفُ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ فِي لَحْظَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَحَسْبُ، بَلْ بِمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِيرَ إِلَيْهِ. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَحَدُ الجُذُورِ الفَلْسَفِيَّةِ لِفِكْرَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ: إِمْكَانُ تَرَقِي الذَّاتِ مِنْ مَرْتَبَةٍ أَدْنَى إِلَى مَرْتَبَةٍ أَعْلَى. وَلَيْسَ التَّرَقِي هُنَا تَرَاكُمًا كَمِيًّا لِلأَعْمَالِ، بَلْ تَغَيُّرٌ كَيْفِيٌّ فِي وَعْيِ السَّالِكِ وَإِرَادَتِهِ وَعَلَاقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَبِالْعَالَمِ وَبِاللَّهِ. وَلَا يَنْفَصِلُ سُؤَالُ الكَمَالِ فِي التَّصَوُّفِ عَنْ سُؤَالِ المَعْرِفَةِ؛ غَيْرَ أَنَّ المَعْرِفَةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِ جَمْعِ

المَعْلُومَاتِ أَوِ الاسْتِدْلَالِ النَّظَرِي، بَلْ تَتَّصِلُ بِالتَّحَقُّقِ وَالذَّوْقِ وَالكَشْفِ. وَيَتَجَلَّى الفَرْقُ الجَوْهَرِيُّ هُنَا فِي أَنَّ المَعْرِفَةَ لَا تَتَعَلَّقُ بِالمَعْرُوفِ وَحْدَهُ، بَلْ تُحْدِثُ تَحَوُّلًا فِي العَارِفِ نَفْسِهِ؛ فَمَعْرِفَةُ الحَقِيقَةِ، فِي المَنْظُورِ الصُّوفِي، لَا تَكْتَمِلُ مَا لَمْ تُصْبِحْ تَحَقُّقًا. وَهَذَا مَا سَيَأْخُذُ مَدًى أَعْمَقَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ؛ إِذْ تَرْتَبِطُ المَعْرِفَةُ عِنْدَهُ بِاسْتِعْدَادِ المَحَلِ وَبِالتَّجَلِّي وَبِقَابِلِيَّةِ الإِنْسَانِ لِمَعْرِفَةِ الحَقَائِقِ2.(ابن عربي،1946 ،ص324 ) وَبِهَذَا يَغْدُو الكَمَالُ المَعْرِفِيُّ جُزْءًا مِنَ الكَمَالِ الإِنْسَانِي؛ لِأَنَّ الذَّاتَ تَتَغَيَّرُ بِمَا تَعْرِفُهُ وَبِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي تَتَحَقَّقُ بِهَا بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ. وَتُمَثِّلُ الوِلَايَةُ حَلْقَةً أَسَاسِيَّةً فِي التَّطَوُّرِ التَّارِيخِي وَالمَفْهُومِي الَّذِي أَفْضَى إِلَى نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ. وَقَدْ كَانَ لِلحَكِيمِ التِّرْمِذِي دَوْرٌ بَارِزٌ فِي نَقْلِ مَبْحَثِ الوِلَايَةِ مِنَ الدَّلَالَةِ العَامَّةِ لِلصَّلَاحِ وَالقُرْبِ إِلَى بِنَاءٍ أَكْثَرَ تَرْكِيبًا يَتَّصِلُ بِمَرَاتِبِ الْأَوْلِيَاءِ وَخَتْمِ الوِلَايَةِ وَالمَعْرِفَةِ1.(الترمذي،1965 ،ص336 ).

وَتَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ هَذَا التَّطَوُّرِ فِي أَنَّ السُّؤَالَ لَمْ يَعُدْ كَيْفَ يَكُونُ الإِنْسَانُ صَالِحًا؟ فَحَسْبُ، بَلْ أَصْبَحَ مَا أَقْصَى مَرْتَبَةٍ رُوحِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَهَا؟ وَهُنَا يَأْخُذُ مَفْهُومُ الكَمَالِ بُعْدًا تَرَاتُبِيًّا؛ إِذْ لَا يَقِفُ النَّاسُ عِنْدَ مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي التَّحَقُّقِ، بَلْ يَخْتَلِفُونَ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ فِي المَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالقُرْبِ.ويمكن القول انه يُعَدُّ مَفْهُومَا الفَنَاءِ وَالبَقَاءِ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْ عُمْقِ التَّحَوُّلِ الَّذِي يُرِيدُهُ التَّصَوُّفُ لِلذَّاتِ. وَلَا يَنْبَغِي فَهْمُ الفَنَاءِ، فِي سِيَاقِ بِنَاءِ الإِنْسَانِ عَلَى أَنَّهُ قتل لِلذَّاتِ أَوْ إِلْغَاءٌ لِوُجُودِهَا، بَلْ يُقْرَأُ فِي سِيَاقِ التَّحَرُّرِ مِنْ هَيْمَنَةِ الأَنَا وَمُرَادَاتِهَا، لِيَعْقُبَهُ البَقَاءُ بِمَرْتَبَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الوَعْيِ وَالإِرَادَةِ وَالحُضُورِ2.(القشيري،1972 ،ص138 ) وَبِهَذَا يَكْشِفُ الفَنَاءُ وَالبَقَاءُ عَنْ بِنْيَةٍ جَدَلِيَّةٍ فِي بِنَاءِ الذَّاتِ: تَخَلّ، تَحَوُّلٌ، تَحَقُّق. فَلَا يَتَحَقَّقُ الكَمَالُ بِإِضَافَةِ صِفَاتٍ جَدِيدَةٍ إِلَى ذَاتٍ بَقِيَتْ عَلَى حَالِهَا، بَلْ بِتَحَوُّلٍ فِي بِنْيَتِهَا الدَّاخِلِيَّة.

**-الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ وَالنَّمُوذَجُ الْأَعْلَى لِلكَمَالِ :**

يَكْتَسِبُ مَفْهُومُ الكَمَالِ فِي التَّصَوُّفِ بُعْدًا آخَرَ حِينَ يَرْتَبِطُ بِالنَّمُوذَجِ المُحَمَّدِيّ؛ فَالكَمَالُ لَا يَبْقَى إِمْكَانًا مُجَرَّدًا، بَلْ يَرْتَبِطُ بِنَمُوذَجٍ يَتَجَسَّدُ فِيهِ أَعْلَى مَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِهِ. وَيَبْلُغُ هَذَا المَعْنَى دَرَجَةً شَدِيدَةَ الوُضُوحِ عِنْدَ الجِيلِيّ، حَيْثُ يَرْبِطُ الإِنْسَانَ الكَامِلَ بِالحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ، وَيَجْعَلُ سَائِرَ الكُمَّلِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ مَظَاهِرَ لِلكَمَالِ عَلَى دَرَجَاتٍ، مَعَ بَقَاءِ المَرْتَبَةِ المُحَمَّدِيَّةِ هِيَ المَرْتَبَةَ الجَامِعَةَ الأَعْلَى3.(الجيلي،1997 ،ص207 ) وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ لَا يَتَحَوَّلُ إِلَى مَفْهُومٍ مُجَرَّدٍ عَنِ النَّمُوذَجِ، بَلْ يَتَحَدَّدُ مِنْ خِلَالِ مِعْيَارٍ لِلكَمَالِ..

**سَابِعًا مِنَ الوِلَايَةِ إِلَى الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي:- :**

يَطرح ابْنُ عَرَبِي كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ المَفَاهِيمِ، لَكِنَّهُ يُعِيدُ تَرْكِيبَهَا دَاخِلَ نَظَرِيَّةٍ أَوْسَعَ فِي الْإِنْسَانِ وَالوُجُودِ. فَلَمْ يَعُدِ الكَمَالُ مَرْتَبَةً أَخْلَاقِيَّةً أَوْ سُلُوكِيَّةً فَقَطْ، بَلْ ارْتَبَطَ بِقَابِلِيَّةِ الإِنْسَانِ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الحَقَائِقِ وَبِمَرْتَبَتِهِ فِي الْخِلَافَةِ وَبِصِلَتِهِ بِالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ. وَيَتَّضِحُ هَذَا فِي الفَصِ الآدَمِيّ، حَيْثُ يُقَدِّمُ ابْنُ عَرَبِيّ آدَمَ فِي سِيَاقِ «الكَوْنِ الجَامِعِ»، يَرْبِطُ بَيْنَ جَمْعِيَّةِ النَّشْأَةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالخِلَافَةِ1.(ابن عربي،1946 ،ص342 ) وَهُنَا تَكمن نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ الحَاسِمَةُ: الإِنْسَانُ لَا يَسْعَى إِلَى الكَمَالِ فَقَطْ؛ بَلْ إِنَّ بِنْيَةَ وُجُودِهِ نَفْسَهَا تَجْعَلُهُ قَابِلا لِلتَّحَقُّقِ بِمَرْتَبَةِ الجَمْعِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الاسْتِعْدَادِ لِلكَمَالِ وَالتَّحَقُّقِ بِالكَمَالِ؛ وَهُوَ تَمْيِيزٌ سَيُصْبِحُ أَكْثَرَ وُضُوحًا عِنْدَ الجيلي فِي ثُنَائِيَّةِ «القُوَّةِ» و«الفِعْلِ.«

**خُلاصَةُ:**

يَتَّضِحُ مِنْ هَذَا المَطْلَبِ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَمْ تَنْشَأْ مُنْفَصِلَةً عَنِ التَّارِيخِ الدَّاخِلِي لِلتَّصَوُّفِ، بَلْ تَشَكَّلَتْ عَلَى أَرْضِيَّةٍ مِنَ التَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالمَعْرِفَةِ وَالوِلَايَةِ وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ. وَتَكْشِفُ هَذِهِ الجُذُورُ عَنْ أَنَّ سُؤَالَ الكَمَالِ كَانَ، فِي أَصْلِهِ، سُؤَالًا عَنْ تَحَوُّلِ الإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَتَطَوَّرَ إِلَى بِنَاءٍ أُنْطُولُوجِيَ وَمَعْرِفِي أَكْثَرَ تَرْكِيبًا. وَمَعَ ابْنِ عَرَبِي يَحْدُثُ تَحَوُّلٌ نَوْعِيٌّ؛ إِذْ تُدْمَجُ فِكْرَةُ التَّرَقِي الرُّوحِيَ فِي تَصَوُّرٍ أَوْسَعَ لِمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ فِي الوُجُودِ، ثُمَّ يَأْتِي الْجِيلِيُّ لِيُعِيدَ صِيَاغَةَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي نَظَرِيَّةٍ أَكْثَرَ تَرْكِيزًا فِي الإِنْسَانِ الكَامِلِ. وَعَلَيْهِ، يُمْكِنُ صِيَاغَةُ المَسَارِ المَفْهُومِيّ عَلَى النَّحْوِ الآتي: التَّزْكِيَةُ، السُّلُوكُ، التَّرَقِّي، المَعْرِفَةُ، الوِلَايَةُ، التَّحَقُّقُ الكَمَالُ. وَهَذَا المَسَارُ هُوَ الَّذِي يَمْهَدُ لِلمَطْلَبِ الثَّالِثِ، الَّذِي يَبْحَثُ فِي فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ وَالانتِقَالِ مِنَ الإِمْكَانِ الإِنْسَانِي إِلَى التَّحَقُّقِ بِالكَمَالِ.

**المَطْلَبُ الثَّالِثُ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ إِلَى تَحَقُّقِ الكَمَالِ: فَلْسَفَةُ بِنَاءِ الذات الصوفية:**

إِذَا كَانَ المَطْلَبُ السَّابِقُ قَدْ كَشَفَ عَنِ الجُذُورِ الرُّوحِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي مَهَّدَتْ لِظُهُورِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، فَإِنَّ هَذَا المَطْلَبَ يَنْتَقِلُ إِلَى السُّؤَالِ الْأَكْثَرِ اتِّصَالًا بِفَرْضِيَّةِ البَحْثِ: كَيْفَ تُبْنَى الذَّاتُ الصُّوفِيَّةُ حَتَّى تَصِيرَ أَهْلًا لِلتَّحَقُّقِ بِالكَمَالِ؟

وَهَذَا السُّؤَالُ لَا يَتَّصِلُ بِالتَّزْكِيَةِ وَحْدَهَا، بَلْ بِمَسَارٍ مُرَكَّبٍ تَتَدَاخَلُ فِيهِ المَعْرِفَةُ وَالإِرَادَةُ وَالمُجَاهَدَةُ وَالمُرَاقَبَةُ وَالفَنَاءُ وَالبَقَاءُ وَالتَّحَقُّقُ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ فِي التَّصَوُّفِ لَا يُفْهَمُ بَوْصْفِهِ نِهَايَةً ثَابِتَةً فَحَسْبُ، بَلْ بَوْصْفِهِ سَيْرُورَةً رُوحِيَّةً تَنْتَقِلُ فِيهَا الذَّاتُ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أُخْرَى .

**أَوَّلًا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَالانتِقَالُ مِنَ الطَّبْعِ إِلَى التَّحَقُّقِ:**

لَا يَبْدَأُ بِنَاءُ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ فَرَاغٍ، بَلْ يَبْدَأُ مِنَ النَّفْسِ نَفْسِهَا، بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ شَهَوَاتٍ وَمَيْلٍ وَتَعَلُّقٍ وَتَشَتُّتٍ وَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ التَّزْكِيَةُ فِي التُّرَاثِ الصُّوفِي مَجَرَّدَ تَهْذِيبٍ خُلُقِيّ، بَلْ عَمَلِيَّةً تَسْتَهْدِفُ إِعَادَةَ بِنَاءِ مَرْكَزِ الإِرَادَةِ فِي الإِنْسَانِ، وَنَقْلَهُ مِنَ الانْقِيَادِ لِلرَّغْبَةِ إِلَى الوَعْيِ وَالمُرَاقَبَةِ وَالاخْتِيَارِ. وَيَبْرُزُ هَذَا المَعْنَى عِنْدَ الجِيلِي فِي حَدِيثِهِ عَنْ مَرَاتِبِ النَّفْسِ، حَيْثُ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ الأَمَّارَةِ وَاللَّوَّامَةِ وَالمُطْمَئِنَّةِ، وَيَجْعَلُ الانتِقَالَ بَيْنَ هَذِهِ المَرَاتِبِ جُزْءًا مِنْ مَسَارِ التَّحَقُّقِ1.(الجيلي،1997 ،ص209 ) وَيَكْشِفُ هَذَا عَنْ أَنَّ النَّفْسَ لَيْسَتْ بِنْيَةً نِهَائِيَّةً مُغْلَقَةً، بَلْ بِنْيَةٌ تَقْبَلُ التَّحَوُّلَ وَالتَّرَقِي .

**ثَانِيًا: المُجَاهَدَةُ وَتَحْرِيرُ الإِرَادَةِ:**

تَحْتَلُّ المُجَاهَدَةُ مَوْقِعًا مَرْكَزِيًّا فِي بِنَاءِ الذَّاتِ؛ لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ الجَانِبَ الفَاعِلَ مِنْ عَمَلِ الإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ. وَلَا تَعْنِي المُجَاهَدَةُ الْغَاءَ الإِرَادَةِ، بَلْ تَحْرِيرَهَا مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلهَوَى. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ قِرَاءَةُ المُجَاهَدَةِ فَلْسَفِيًّا بَوْصْفِهَا مَمَارَسَةً لِلحُرِّيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ؛ لأَنَّ الذَّاتَ الَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَةِ رَغَبَاتِهَا لَا تَمْلِكُ إِرَادَتَهَا امْتِلَاكًا حَقِيقِيًّا. وَقَدْ أَفْرَدَ القُشَيْرِيُّ لِلمُجَاهَدَةِ وَالمُرَاقَبَةِ وَالمُحَاسَبَةِ مَوَاضِعَ مُهِمَّةً فِي الرِّسَالَةِ القُشَيْرِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُظْهِرُ أَنَّ السُّلُوكَ الصُّوفِيَّ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّدَرُّبِ وَالتَّرَقِي لَا عَلَى التَّلَقِي السَّلْبِيّ2.(القشيري،1972 ،ص212 ) وَبِهَذَا يَتَحَوَّلُ السَّالِكُ مِنْ كَائِنٍ تَسُوقُهُ دَوَافِعُهُ إِلَى ذَاتٍ قَادِرَةٍ عَلَى صِيَاغَةِ مَسَارِهَا الرُّوحِيّ .

**ثَالِثًا: المَعْرِفَةُ وَإِعَادَةُ بِنَاءِ الوَعْي:**

لَا يَقُومُ الكَمَالُ الصُّوفِيُّ عَلَى السُّلُوكِ وَحْدَهُ، بَلْ يَقْتَضِي تَحَوُّلًا فِي بِنْيَةِ المَعْرِفَةِ نَفْسِهَا. فَالمَعْرِفَةُ الصُّوفِيَّةُ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِ تَحْصِيلِ المَعْلُومِ، بَلْ تُصْبِحُ مَعْرِفَةً تَغْيِيرِيَّةً؛ أَيْ مَعْرِفَةً تُغَيِّرُ مَنْ يَعْرِفُ. وَهُنَا تَظْهَرُ إِحْدَى أَهَمِّ سِمَاتِ فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ الصُّوفِيَّةِ: أَنَّ المَعْرِفَةَ لَا تُقَاسُ بِمَا يُضَافُ إِلَى الذِّهْنِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ، بَلْ بِمَا تُحْدِثُهُ فِي الإِنْسَانِ مِنْ تَحَوُّلٍ فِي الرُّؤْيَةِ وَالإِرَادَةِ وَالحُضُورِ. وَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي تَرْتَبِطُ المَعْرِفَةُ بِالاسْتِعْدَادِ وَالتَّجَلِّي وَقَابِلِيَّةِ المَحَلِ، وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ الذَّاتَ لَا تَسْتَقْبِلُ الحَقِيقَةَ بِصُورَةٍ مَحَايِدَةٍ، بَلْ بِقَدْرِ مَا تَكُونُ قَدْ تَهَيَّأَتْ لَهَا3.(ابن عربي،1946 ،ص344 ) وَمِنْ هُنَا يَصْبَحُ التَّهْذِيبُ الرُّوحِيُّ شَرْطًا فِي المَعْرِفَةِ، وَتَصْبَحُ المَعْرِفَةُ بَدَوْرِهَا أَدَاةً لِتَعْمِيقِ التَّحَقُّقِ.

**رَابِعًا: الفَنَاءُ وَالبَقَاءُ وَتَحَوُّلُ بِنْيَةِ الذَّاتِ:**

يُعَبِّرُ مَفْهُومَا الفَنَاءِ وَالبَقَاءِ عَنْ مَرْحَلَةٍ مُهِمَّةٍ فِي تَحَوُّلِ الذَّاتِ. فَالفَنَاءُ لَا يَعْنِي إِبْطَالَ وُجُودِ الإِنْسَانِ، بَلْ يَتَّصِلُ بِفَنَاءِ تَعَلُّقِهِ بِأَنَانِيَّتِهِ وَمُرَادَاتِ نَفْسِهِ، ثُمَّ يَأْتِي البَقَاءُ لِيُعَبِّرَ عَنْ إِعَادَةِ تَشَكُّلِ الوَعْيِ وَالإِرَادَةِ بَعْدَ هَذَا التَّحَوُّلِ1. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ صِيَاغَةُ البِنْيَةِ التَّحَوُّلِيَّةِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: تَخَلَّ، فَنَاءٌ عَنْ هَيْمَنَةِ النَّفْسِ، تَحَقُّقٌ، بَقَاءٌ بِوَعْيٍ جَدِيدٍ. وَهَذَا يُظْهِرُ أَنَّ الكَمَالَ الصُّوفِيَّ لَا يَقُومُ عَلَى تَرَاكُمِ الصِّفَاتِ، بَلْ عَلَى تَحَوُّلٍ فِي مَرْكَزِ الذَّاتِ نَفْسِهَا .

**خَامِسًا: بَيْنَ الاسْتِعْدَادِ وَالتَّحَقُّقِ:**

تَحْتَلُ ثُنَائِيَّةُ الاسْتِعْدَادِ وَالتَّحَقُّقِ مَوْقِعًا مَرْكَزِيًّا فِي فَهْمِ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ. فَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ قَابِلًا لِلكَمَالِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُحَوّل هَذِهِ القَابِلِيَّةَ إِلَى حَقِيقَةٍ مُتَحَقِّقَةٍ فِي وُجُودِهِ. وَيَكْتَسِبُ هَذَا التَّمْيِيزُ وُضُوحًا خَاصًّا عِنْدَ الجِيلِيّ فِي حَدِيثِهِ عَنْ مَنْ تَكُونُ الكَمَالَاتُ فِيهِ بِالقُوَّةِ وَمَنْ تَكُونُ فِيهِ بِالفِعْلِ2.(الجيلي،1997 ،ص234) وَهُنَا نَقِفُ أَمَامَ أَهَمّ النِّقَاطِ الَّتِي تَدْعَمُ فَرْضِيَّةَ البَحْثِ؛ لِأَنَّ الكَمَالَ لَا يُفْهَمُ بِوَصْفِهِ مَرْتَبَةً مُعْطَاةً، بَلْ بِوَصْفِهِ فِعْلَ تَحَقُّقٍ.

وَبِهَذَا يَتَحَوَّلُ سُؤَالُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ سُؤَالٍ عَنْ المَاهِيَّةِ إِلَى سُؤَالٍ عَنْ الصَّيْرُورَةِ.ويَحْمِلُ الإِنْسَانُ عند ابن عربي مَعْنَى الجَمْعِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُهُ مُمَيَّزًا فِي نِظَامِ الوُجُودِ3.(ابن عربي،1946 ،ص345 ) وَلَكِنَّ هَذِهِ الجَمْعِيَّةَ لَا تَعْنِي أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنَ البَشَرِ قَدْ تَحَقَّقَ فِعْلًا بِمَرْتَبَةِ الكَمَالِ؛ وَإِلَّا لَمَا كَانَ هُنَاكَ مَعْنًى لِلسُّلُوكِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالتَّرَقِي. وَهُنَا يَظْهَرُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ: الجَمْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الاسْتِعْدَادُ، وَالجَمْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ التَّحَقُّقُ. وَيُمْكِنُ عَبْرَ هَذَا التَّمْيِيزِ فَهْمُ كَيْفَ يَكُونُ الإِنْسَانُ مُؤَهَّلًا لِمَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ فِي الوُجُودِ، مَعَ بَقَاءِ الحَاجَةِ إِلَى سُلُوكٍ وَمَعْرِفَةٍ وَتَزْكِيَةٍ حَتَّى يَتَحَقَّقَ بِمُقْتَضَيَاتِهَا.

**سَادسا: الكَمَالُ وَالحُرِّيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ:**

يَفْتَحُ مَفْهُومُ بِنَاءِ الذَّاتِ الصُّوفِيَّةِ بَابًا مُهِمًّا عَلَى سُؤَالِ الحُرِّيَّةِ. فَإِذَا كَانَتِ الذَّاتُ مَحْكُومَةً بِشَهَوَاتِهَا وَانْفِعَالَاتِهَا وَمُرَادَاتِهَا المُتَقَلِّبَةِ، فَهَلْ يُمْكِنُ اعْتِبَارُهَا ذَاتًا حُرَّةً؟ مِنْ هُنَا يُمْكِنُ قِرَاءَةُ السُّلُوكِ الصُّوفِي بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا لِتَحْرِيرِ الإِرَادَةِ مِنَ الاسْتِعْبَادِ الدَّاخِلِيّ. وَالْمُفَارَقَةُ هُنَا أَنَّ الحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَتَحَقَّقُ بِالانْفِلَاتِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ، بَلْ بِالتَّحَقُّقِ بِالعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَالتَّحَرُّرِ مِنْ عُبُودِيَّةِ الهَوَى. وَهَذِهِ النُّقْطَةُ تَجْعَلُ مَفْهُومَ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ قَابِلًا لِقِرَاءَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى المِيتَافِيزِيقَا، بَلْ تَمَسُّ قَضَايَا الحُرِّيَّةِ وَالإِرَادَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ وَالأَخْلَاقِ. وبالتالي يحضر الكَمَالُ بَوْصْفِهِ وَحْدَةً بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ، فَإِذَا جُمِعَتِ العَنَاصِرُ السَّابِقَةُ، تَبَيَّنَ أَنَّ الكَمَالَ الصُّوفِيَّ لَا يَقُومُ عَلَى بُعْدٍ وَاحِدٍ. فَلَا تَكْفِي المَعْرِفَةُ دُونَ التَّزْكِيَةِ، وَلَا تَكْفِي التَّزْكِيَةُ دُونَ التَّحَقُّقِ، وَلَا يَكْفِي السُّلُوكُ إِذَا لَمْ يُفْضِ إِلَى تَحَوُّلٍ فِي الذَّاتِ. وَمِنْ هُنَا يَتَجَلَّى الكَمَالُ فِي وَحْدَةِ أَبْعَادٍ مُتَعَدِّدَةٍ: مَعْرِفَةٌ تُنِيرُ، وَتَزْكِيَةٌ تُطَهِّرُ، وَإِرَادَةٌ تَتَحَرَّرُ، وَسُلُوكٌ يُحَقِّقُ، وَأَخْلَاقٌ تَتَجَسَّدُ. وَهَذِهِ الوَحْدَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الإِنْسَانَ الكَامِلَ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ نَمُوذَجٍ مِيتَافِيزِيقِيّ؛ إِذْ يَغْدُو مَشْرُوعًا لِصِنَاعَةِ الذَّاتِ.

**الخُلاصَةُ:**

يَكْشِفُ هَذَا المَطْلَبُ عَنْ أَنَّ تَحَقُّقَ الكَمَالِ فِي التَّصَوُّفِ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ بِنَاءِ الذَّاتِ، وَأَنَّ هَذَا البِنَاءَ يَمُرُّ بِمَسَارٍ مُرَكَّبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ وَتَحْرِيرِ الإِرَادَةِ. وَقَدْ أَظْهَرَ التَّحْلِيلُ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الاسْتِعْدَادِ وَالتَّحَقُّقِ أَسَاسِيٌّ فِي فَهْمِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَمْتَلِكُ إِمْكَانَ الكَمَالِ مُتَحَقِّقًا بِهِ. وَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي، تَتَّصِلُ هَذِهِ القَابِلِيَّةُ بِجَمْعِيَّةِ الإِنْسَانِ وَمَرْتَبَتِهِ فِي الوُجُودِ، بَيْنَمَا يُصَرِّحُ الجِيلِيُّ بِالفَرْقِ بَيْنَ مَا يَكُونُ فِي الإِنْسَانِ بِالقُوَّةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ بِالفِعْلِ. وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثَةِ مُسْتَوَيَاتٍ مُتَرَابِطَةٍ: مَرْتَبَةٌ وُجُودِيَّةٌ، اسْتِعْدَادٌ مَعْرِفِيٌّ وَرُوحِيٌّ، تَحَقُّقٌ أَخْلَاقِيٌّ وَسُلُوكِيٌّ.

وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ تُمَهِّدُ لِلمَبْحَثِ الثَّانِي الَّذِي سَيَتَنَاوَلُ الْإِنْسَانَ الكَامِلَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ: مِنْ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ إِلَى بِنَاءِ الذَّاتِ.

**خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الْأَوَّلِ:**

أَظْهَرَ هَذَا المَبْحَثُ أَنَّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا يُمْكِنُ فَهْمُهُ مِنْ خِلَالِ مَعْنًى وَاحِدٍ، بَلْ يَنْتَمِي إِلَى بِنَاءٍ مُرَكَّبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ. فَفِي المُسْتَوَى الفَلْسَفِي يَتَّصِلُ الكَمَالُ بِالغَايَةِ وَبِالانتِقَالِ مِنَ الإِمْكَانِ إِلَى الفِعْلِ، وَفِي المُسْتَوَى الصُّوفي يَغْدُو هَذَا الانتِقَالُ مَسَارًا لِلتَّزْكِيَةِ وَالسُّلُوكِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ. وَقَدْ بَيَّنَ المَبْحَثُ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَمْ تَنْشَأْ دُونَ مُقَدِّمَاتٍ، بَلْ تَشَكَّلَتْ فِي سِيَاقٍ صُوفِي تَرَاكَمَتْ فِيهِ مَفَاهِيمُ التَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَالمَقَامَاتِ وَالأَحْوَالِ وَالوِلَايَةِ وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ. وَمَعَ ابْنِ عَرَبِيّ تَنْتَقِلُ فِكْرَةُ الكَمَالِ إِلَى أُفُقٍ وُجُودِي أَرْحَبَ، حَيْثُ يَتَّصِلُ الإِنْسَانُ بِالجَمْعِيَّةِ وَالخِلَافَةِ وَمَرْتَبَتِهِ فِي الْوُجُودِ، فِي حِينِ يَأْتِي الجِيلِيُّ لِيَجْعَلَ الإِنْسَانَ الكَامِلَ مَحْوَرًا صَرِيحًا فِي بِنَائِهِ الصُّوفي. وَتَتَمَثَّلُ النَّتِيجَةُ المَرْكَزِيَّةُ لِهَذَا المَبْحَثِ فِي أَنَّ

السُّؤَالَ عَنِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِف عِنْدَ: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ؟ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى: كَيْفَ يَصِيرُ الإِنْسَانُ كَامِلاً؟ وَهَذَا هُوَ المَدْخَلُ الَّذِي سَيَقُودُ إِلَى المَبْحَثِ الثَّانِي، حَيْثُ تُدْرَسُ نَظَرِيَّةُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ مِنْ دَاخِلِ بِنَائِهِ الوُجُودِي وَالمَعْرِفِي وَالسُّلُوكِي مَعَ التَّرْكِيز عَلَى عَلَاقَةِ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ بِبِنَاءِ الذَّاتِ وَتَحَقُّقِ الكَمَالِ.

**المَبْحَثُ الثَّانِي**: الإِنْسَانُ الكَامِلُ عِنْدَ ابْن عَرَبيّ: مِنْ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ إِلَى بِنَاءِ الذات:

يَحْتَلُ الإِنْسَانُ مَوْقِعًا مَرْكَزِيًّا فِي البِنَاءِ الصُّوفِي وَالفَلْسَفِي عِنْدَ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ عَرَبِيّ؛ إِذْ لَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ بَوْصْفِهِ جُزْءًا مِنَ العَالَمِ فَحَسْبُ، بَلْ بِوَصْفِهِ مَوْجُودًا يَحْمِلُ فِي بِنْيَتِهِ قَابِلِيَّةُ الجَمْعِ بَيْنَ مَرَاتِبَ الوُجُودِ، وَهُوَ مَا يُفْسِرُ المَكَانَةَ الخَاصَّةَ الَّتِي يَمْنَحُهَا لَهُ ابْنُ عَرَبِي فِي نَظَرِيَّتِهِ فِي الخَلْقِ وَالتَّجَلِّي وَالخِلَافَةِ. وَيَظْهَرُ هَذَا المَعْنَى مِنْ بَدَايَةِ الفَصِ الْآدَمِيّ فِي فُصُوصِ الحِكَمِ، حَيْثُ يَرْبِطُ ابْنُ عَرَبِي خَلْقَ آدَمَ بِحَاجَةِ العَالَمِ إِلَى «كَوْنٍ جَامِعٍ» تَظْهَرُ فِيهِ حَقَائِقُ الْأَسْمَاءِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ صُورَةُ العَالَمِ فِى مَرْتَبَةٍ جَامِعَةٍ1.(ابن عربي،1946،ص344 ) وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي يَجْمَعُ بَيْنَ بُعْدَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ: بُعْدٍ وُجُودِيّ يُحَدِّدُ مَرْتَبَتَهُ فِي العَالَمِ، وَبُعْدٍ سُلُوكِيّ مَعْرِفِيّ يَتَّصِلُ بِمَدَى تَحَقُّقِهِ بِمُقْتَضَيَاتِ تِلْكَ المَرْتَبَةِ.

إِذْ لَا يَظْهَرُ الانسان فِي نَسَقِ ابن عربي الْفِكْرِي بِوَصْفِهِ كَائِنًا جُزْئِيًّا يَعِيشُ دَاخِلَ العَالَمِ فَحَسْبُ، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَى مِحْوَرٍ تَتَقَاطَعُ عِنْدَهُ مَرَاتِبُ الوُجُودِ، وَتَتَكَشَّفُ مِنْ خِلَالِهِ العَلَاقَةُ بَيْنَ الْحَقّ وَالعَالَمِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ دِرَاسَةَ الإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ البُعْدِ الأَخْلَاقِيّ، أَوِ الرُّوحِي، بَلْ تَقْتَضِي النَّظَرَ إِلَيْهِ مِنْ دَاخِلِ رُؤْيَةٍ وُجُودِيَّةٍ أَشْمَلَ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ تَحَقُّقِهِ، يُصْبِحُ عِنْدَهُ «كَوْنًا جَامِعًا»، تَجْتَمِعُ فِيهِ حَقَائِقُ العَالَمِ وَمَرَاتِبُهُ، وَتَظْهَرُ فِيهِ قَابِلِيَّةُ التَّجَلِّي بِالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ2.(ابن عربي،1946 ،ص346 ) وَلِذَلِكَ يَرْتَبِطُ مَفْهُومُ «الكَوْنِ الجَامِعِ» ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمَفْهُومِ «الإِنْسَانِ الكَامِلِ»؛ وَلَيْسَ المَقْصُودُ مُجَرَّدَ اتِّسَاعِ المَعْرِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ جَامِعِيَّةٌ وُجُودِيَّةٌ تَجْعَلُ الإِنْسَانَ مَوْضِعًا لِالْتِقَاءِ مَرَاتِبَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الوُجُودِ، وَمِنْ ثَمَّ مَوْضِعًا لِفَهْمِ العَلَاقَةِ بَيْنَ الوَحْدَةِ وَالكَثْرَةِ، وَبَيْنَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، وَبَيْنَ الرُّوحِ وَالصُّورَةِ. وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ ابْنَ عَرَبِي نَقَلَ السُّؤَالَ عَنِ الإِنْسَانِ مِنْ مَا الإِنْسَانُ إِلَى سُؤَالٍ أَعْمَقَ مَا مَوْقِعُ الإِنْسَانِ فِي نِظَامِ الوُجُودِ؟ وَلِمَاذَا كَانَ الإِنْسَانُ هُوَ المَوْجُودَ القَادِرَ عَلَى الجَمْعِ بَيْنَ مَرَاتِبِ العَالَمِ؟ وَهَذَا هُوَ المَدْخَلُ الَّذِي يَقُودُ إِلَى فَهْمِ انْتِقَالِ الْإِنْسَانِ مِنْ حُدُودِ الفَرْدِيَّةِ البَشَرِيَّةِ إِلَى مَرْتَبَةِ «الكَوْنِ الجَامِعِ». وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ، يَنْبَغِي أَلَّا نُفْهَمَ نَظَرِيَّةُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ عَلَى أَنَّهَا وَصْفٌ مِيتَافِيزِيقِيٌّ مَحْضٌ بَلْ إِنَّهَا تَفْتَحُ السُّؤَالَ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحَقُّقِ الذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ بِمَا هِيَ مُؤَهَّلَةٌ لَهُ.

**المَطْلَبُ الأَوَّلُ: الأُسُسُ الوُجُودِيَّةُ وَالمَعْرِفِيَّةُ لِلإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي::**

الإِنْسَانُ وَمَرْتَبَةُ «الكَوْنِ الجَامِعِ»: يُعَدُّ مَفْهُومُ الكَوْنِ الجَامِعِ مِنْ أَسَاسِيَّاتِ التَّصَوُّرِ الأَكْبَرِي لِلإِنْسَانِ؛ فَابْنُ عَرَبِي لَا يَنْظُرُ إِلَى الإِنْسَانِ بِوَصْفِهِ مَوْجُودًا يَشْتَرِكُ مَعَ بَقِيَّةِ المَوْجُودَاتِ فِي الوُجُودِ فَحَسْبُ، بَلْ يَرَى فِيهِ صُورَةً جَامِعَةً لِمَا تَفَرَّقَ فِي العَالَمِ. فَفِي الفَصّ الآدَمِيّ يَرْبِطُ ابْنُ عَرَبِي بَيْنَ ظُهُورِ العَالَمِ وَوُجُودِ مَرْآةٍ جَامِعَةٍ تَنْكَشِفُ فِيهَا حَقَائِقُ الأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَيَجْعَلُ النَّشْأَةَ الإِنْسَانِيَّةَ مَوْضِعًا لِهَذِهِ الجَمْعِيَّةِ1.(ابن عربي،1946 ،ص345 ) وَيَتَّضِحُ مِنْ هَذَا أَنَّ «الجَمْعِيَّةَ» لَا تَعْنِي تَرَاكُمَ صِفَاتٍ فِي الإِنْسَانِ، بَلْ تَعْنِي أَنَّ بِنْيَتَهُ الوُجُودِيَّةَ تَجْعَلُهُ قَابِلًا لِلتَّعْبِيرِ عَنْ مَرَاتِبَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الوُجُودِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ لَا يُفْهَمُ مِنْ خِلَالِ بُعْدٍ وَاحِدٍ؛ فَهُوَ جَسَدٌ وَرُوحٌ، وَظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَمُتَعَلِّقٌ بِالعَالَمِ وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ قَابِلٌ لِمَعْرِفَةِ مَا يَتَجَاوَزُ المَحْسُوس. ان ابن عربي لَا يَبْدَأُ فِي تَحْلِيلِهِ لِلإِنْسَانِ مِنْ جَسَدِهِ، وَلَا مِنْ قُوَاهُ النَّفْسِيَّةِ فَقَطْ بَلْ مِنْ مَوْقِعِهِ فِي الوُجُودِ. فَالعَالَمُ عِنْدَهُ لَيْسَ مَجْمُوعَةً مِنَ المَوْجُودَاتِ المُنْفَصِلَةِ الَّتِي لَا رَابِطَ بَيْنَهَا، بَلْ هُوَ نِظَامٌ تَتَعَدَّدُ فِيهِ المَرَاتِبُ وَالصُّوَرُ وَالتَّجَلِيَاتُ. وَيَأْتِي الإِنْسَانُ فِي هَذَا النِّظَامِ لِيَحْتَلَ مَرْتَبَةً خَاصَّةً؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْتَمِي إِلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ. فَفِيهِ الْجِسْمُ وَالرُّوحُ، وَالحِسُّ وَالعَقْلُ، وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ، وَالحَاجَةُ المَادِيَّةُ وَالتَّطَلُّعُ الرُّوحِيُّ. وَمِنْ هُنَا تَظْهَرُ فِيهِ خَاصِيَّةُ الجَمْعِ. وَلَا تَعْنِي هَذِهِ الجَمْعِيَّةُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَسْتَقِلُّ بِالوُجُودِ، وَلَا أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ يَزُولُ، بَلْ تَعْنِي أَنَّ بِنْيَةَ الإِنْسَانِ أَوْسَعُ قَابِلِيَّةً لِاسْتِيعَابِ مَرَاتِبِ العَالَمِ وَدَلَالَاتِ الأَسْمَاءِ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ المَوْجُودَاتِ. حيث تُشَكِّلُ فِكْرَةُ المُقَابَلَةِ بَيْنَ العَالَمِ الكَبِير وَالعَالَمِ الصَّغِير خَلْفِيَّةً مُهِمَّةً لِفَهْمِ مَكَانَةِ الإِنْسَانِ

عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ. فَإِذَا كَانَ العَالَمُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَرَاتِبَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الوُجُودِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَجْمَعُ فِي تَكْوِينِهِ نَظَائِرَ هَذِهِ المَرَاتِ1.(ابن عربي،1946،ص346 ). وَمِنْ هُنَا أَمْكَنَ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ مُخْتَصَرٌ لِلعَالَم. إِلَّا أَنَّ ابْنَ عَرَبِيّ يَتَجَاوَزُ فِكْرَةَ العَالَمِ الصَّغِيرِ إِلَى مَفْهُومٍ أَكْثَرَ عُمْقًا، هُوَ «الكَوْنُ الجَامِعُ». وَيَظْهَرُ هَذَا المَعْنَى فِي فَاتِحَةِ فُصُوصِ الحِكَمِ، حَيْثُ يَرْبِطُ ابْنُ عَرَبِي بَيْنَ إِرَادَةِ ظُهُورِ حَقَائِقِ الأَسْمَاءِ وَإِيجَادِ «كَوْنٍ جَامِعٍ يَحْصُرُ الأَمْرَ كُلَّهُ»2.(ابن عربي،1946 ،ص346 ).

وَتَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ عِبَارَةِ «يَحْصُرُ الأَمْرَ كُلَّهُ» فِي أَنَّهَا تُحَدِّدُ المَعْنَى العَمِيقَ لِلجَامِعِيَّة؛ فَلَا يَعُودُ الإِنْسَانُ صُورَةً مُصَغَّرَةً لِلعَالَمِ فَقَطْ بَلْ يَصِيرُ مَوْجُودًا تَجْتَمِعُ فِي نَشْأَتِهِ حَقَائِقُ مُتَعَدِّدَةٌ. وَبِهَذَا يَكُونُ الانْتِقَالُ مِنَ «الإِنْسَانِ» إِلَى «الكَوْنِ الجَامِعِ» انْتِقَالًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى الإِنْسَانِ بِوَصْفِهِ جُزْءًا مِنَ العَالَمِ، إِلَى النُّظُرِ إِلَيْهِ بِوَصْفِهِ مَوْضِعًا لِاجْتِمَاعِ حَقَائِقِ العَالَمِ. وَهُنَا يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَ الإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ فَرْدٌ بَشَرِيٌّ، وَالإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ حَقِيقَةٌ جَامِعَةٌ. فَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ مُتَحَقِّقًا بِمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بِالمَعْنَى الصُّوفِي، وَإِنْ كَانَتْ النَّشْأَةُ الإِنْسَانِيَّةُ تَحْمِلُ اسْتِعْدَادَ هَذِهِ الجَمْعِيَّةِ. وَبِذَلِكَ تَتَحَوَّلُ مَسْأَلَةُ الإِنْسَانِ مِنْ مَسْأَلَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِمَاهِيَّةِ الإِنْسَانِ إِلَى مَسْأَلَةٍ مُتَعَلِّقَة بِمَرْتَبَتِهِ الوُجُودِيَّة. وَيُفْضِي هَذَا إِلَى نَتِيجَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ مُهِمَّةٍ: الإِنْسَانُ الكَامِلُ لَيْسَ خَارِجًا عَنْ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ، بَلْ هُوَ تَحَقُّقُ أَعْلَى لِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مِنْ إِمْكَانَاتٍ.

**العَالَمُ مِرْآةُ وَالْإِنْسَانُ جَلَاؤُهَا:**

يَسْتَعْمِلُ ابْنُ عَرَبِيّ صُورَةَ المِرْآةِ لِتَقْرِيبِ العَلَاقَةِ بَيْنَ الحَقِّ وَالعَالَمِ وَالإِنْسَانِ. فَالعَالَمُ فِي ذَاتِهِ مَظْهَرٌ، لَكِنَّ الإِنْسَانَ بِجَمْعِيَّتِهِ يُؤَدِّي وَظِيفَةً أَخَصَّ؛ إِذْ يُمَثِّلُ المَرْآةَ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا الْحَقَائِقُ فِي صُورَةٍ جَامِعَةٍ. وَهَذَا مَا يَظْهَرُ فِي تَصْوِيرِ ابْنِ عَرَبِيّ لِلْعَالَمِ قَبْلَ ظُهُورِ آدَمَ بِالمِرْآةِ غَيْرِ المَجْلُوةِ، ثُمَّ يَرْبِطُ خَلْقَ الإِنْسَانِ بِجَلَاءِ هَذِهِ المِرْآة1. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَذَا التَّشْبِيهُ بَوْصْفِهِ صُورَةً أَدَبِيَّةً فَحَسْبُ؛ فَهُوَ يَحْمِلُ دَلَالَةً أَنْطُولُوجِيَّةً. فَالمِرْآةُ لَا تَخْلُقُ الصُّورَةَ مِنْ ذَاتِهَا، بَلْ تَظْهَرُ فِيهَا الصُّورَةُ بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهَا لِلقَبُولِ وَالانْعِكَاسِ. حيث يُقَدِّمُ ابْنُ عَرَبِيّ فِي مُقَدِّمَةِ فُصُوصِ الحِكَمِ صُورَةً رَمْزِيَّةً مِنْ أَكْثَرِ الصُّوَرِ أَهَمِّيَّةً فِي فَهْمِ نَظَرِيَّتِهِ فِي الإِنْسَانِ؛ وَهِيَ صُورَةُ المِرْآةِ. فَالعَالَمُ قَبْلَ ظُهُورِ آدَمَ يُشَبَّهُ بِمِرْآةٍ لَمْ يَكْتَمِلْ جَلَاؤُهَا، وَيَرْبِطُ ابْنُ عَرَبِيّ ظُهُورَ آدَمَ بِاكْتِمَالِ هَذَا الجَلَاءِ2.(ابن عربي،1946 ،ص344 ). وَهَذِهِ الصُّورَةُ لَيْسَتْ تَشْبِيها أَدَبِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ تَحْمِلُ دَلَالَةً مِيتَافِيزِيقِيَّةً؛ لِأَنَّ المِرْآةَ لَا تُنْشِئُ الصُّورَةَ مِنْ ذَاتِهَا، وَإِنَّمَا تُظْهِرُهَا بِحَسَبِ قَابِلِيَّتِهَا لِلانْعِكَاسِ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ يُفْهَمُ الإِنْسَانُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ: بانهُ لَا يَمْلِكُ الكَمَالَ الإِلَهِيَّ مِنْ ذَاتِهِ، بَلْ يَكْمُنُ تَمَيُّزُهُ فِي قَابِلِيَّةِ نَشْأَتِهِ لِلجَمْعِ وَالتَّجَلِّي. وَهَذَا يُفَسِّرُ أَيْضًا اسْتِعْمَالَ ابْنِ عَرَبِيّ لِمَفْهُومِ «الصُّورَةِ»3.(ابن عربي،1946 ،ص345 ). فَالإِنْسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ جُزْءٍ مِنَ العَالَمِ، بَلْ تَجْتَمِعُ فِي نَشْأَتِهِ حَقَائِقُ مُتَعَدِّدَةٌ، مِمَّا يَمْنَحُهُ مَرْتَبَةً لَا تَتَحَقَّقُ بِالصُّورَةِ نَفْسِهَا فِي سَائِرِ المَوْجُودَاتِ..

وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الرَّبْطُ بَيْنَ المِرْآةِ وَالاسْتِعْدَادِ؛ فَالإِنْسَانُ يَتَلَقَّى التَّجَلِّي بِقَدْرِ مَا يَكُونُ مَحَلُّهُ مُهَيَّأً لَهُ. وَهَذِهِ النُّقْطَةُ سَتُصْبِحُ أَسَاسِيَّةً فِي بِنَاءِ الذَّاتِ الصُّوفِيَّة؛ إِذْ إِنَّ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ وَتَصْفِيَةَ القَلْبِ يُمْكِنُ أَنْ تُقْرَأَ فِي هَذَا الرِّيَاقِ عَلَى أَنَّهَا تَهْيِئَةٌ لِلْمَحَلِّ حَتَّى يَصْبِحَ أَقْدَرَ عَلَى التَّلَقِّي وَالمَعْرِفَةِ. وَيُثِيرُ مَفْهُومُ «الْكَوْنِ الْجَامِعِ» سُؤَالًا فَلْسَفِيًّا مُهِمًّا كَيْفَ يُمْكِنُ لِمَوْجُودٍ وَاحِدٍ أَنْ يَجْمَعَ كَثْرَةَ الْمَرَاتِبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ اخْتِلَافُهَا؟ وَتَكْمُنُ إِجَابَةُ ابْنِ عَرَبِي فِي أَنَّ الْجَمْعَ لَا يَعْنِي الْمَحْوَ. فَالْإِنْسَانُ الْكَامِلُ لَا يَلْغِي اخْتِلَافَ الْمَرَاتِبِ، بَلْ يَجْمَعُهَا فِي وَحْدَةٍ مُرَكَّبَةٍ. وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ تَعْبِيرَهُ عَنِ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ «الْكَلِمَةُ الْفَاصِلَةُ الْجَامِعَةُ»؛ فَهُوَ يَجْمَعُ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَفْصِلُ وَيُمَيِّزُ1.(ابن عربي،1946 ،ص345 ). وَمِنْ هُنَا يَتَضح فِي فِكْرِ ابْنِ عَرَبِي نَوْعٌ مِنْ جَدَلِيَّةِ الْوَحْدَةِ وَالْكَثْرَةِ؛ فَالْكَثْرَةُ لَيْسَتْ نَقِيضا لِلْوَحْدَةِ، وَالْوَحْدَةُ لَا تُبْطِلُ الْكَثْرَةَ، بَلْ تُفْهَمُ كُلُّ مِنْهُمَا مِنْ خِلَالِ الْأُخْرَى وَيُعَدُّ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ النَّمُوذَجَ الْأَوْضَحَ لِهَذَا الْجَمْع؛ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ فِي شَخْصِهِ، كَثِيرٌ فِي مَرَاتِبِهِ وَقُوَاهُ وَدَلَالَاتِهِ.

**الْجَامِعِيَّةُ وَالْخِلَافَةُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ إِلَى الْمَسْؤُولِيَّة:**

إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ قَدِ اسْتَحَقَّ الْخِلَافَةَ بِحُكْمِ جَامِعِيَّتِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُفْهَمَ عَلَى أَنَّهَا امْتِيَازٌ فَقَطْ بَلْ هِيَ أَيْضًا مَسْؤُولِيَّةٌ وُجُودِيَّةٌ وَأَخْلَاقِيَّةٌ. فَالْإِنْسَانُ الْكَامِلُ لَا يَتَسَلَّطُ عَلَى الْعَالَمِ؛ بَلْ يَعْرِفُ مَوْقِعَ كُلِّ مَوْجُودٍ وَيُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. وَيَتَّضِحُ هُنَا أَنَّ الْجَمْعِيَّةَ الْحَقَّةَ تَقْتَضِي الْعَدْلَ؛ لِأَنَّ مَنْ يَعْرِفُ تَعَدُّدَ الْمَرَاتِبِ لَا يَخْلِطُ بَيْنَهَا، وَلَا يَضَعُ إِحْدَاهَا فِي مَوْضِعِ الْأُخْرَى. وَمِنْ هُنَا يَكْتَسِبُ مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ بُعْدًا أَخْلَاقِيًّا وَحَضَارِيًّا؛ فَالْكَمَالُ لَيْسَ مَعْرِفَةً مِيتَافِيزِيقِيَّةً مُنْعَزِلَةً عَنِ الْعَالَمِ، بَلْ وَعْيٌ يُتَرْجَمُ إِلَى سُلُوكٍ وَمَوْقِفٍ وَمَسْؤُولِيَّةٍ. وَبِهَذَا تَنْتَقِلُ الْخِلَافَةُ مِنْ دَلَالَةِ السُّلْطَةِ إِلَى دَلَالَةِ الْأَمَانَةِ.

حيث يرْتَبِطُ مَفْهُومُ الخِلَافَةِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمَفْهُومِ الجَمْعِيَّةِ. فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الإِنْسَانُ جَامِعًا لِمَا تَفَرَّقَ فِي العَالَمِ، لَمَا اسْتَحَقَّ فِي البِنَاءِ الأَكْبَرِيّ، هَذِهِ المَرْتَبَةَ وَيُصَرّحُ ابْنُ عَرَبِيّ فِي الفَصِ الْآدَمِيّ بِالرَّبْطِ بَيْنَ جَمْعِيَّةِ آدَمَ وَالخِلَافَةِ، وَيُبَيّنُ أَنَّ اسْتِحْقَاقَ الخِلَافَةِ مُتَّصِلٌ بِمَا جُمِعَ فِي النَّشْأَةِ الإِنْسَانِيَّةِ1.(ابن عربي،1946 ،ص347 ). وقد أشار عفيفي في تحقيقه وتعليقاته إلى هذه الصلة بين «الكون الجامع» والخلافة في الصفحات الأولى من الفص الأدمي. وَلَكِنَّ الخِلَافَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُفْهَمَ عَلَى أَنَّهَا امْتِيَازٌ مُجَرَّدٌ؛ لأَنَّ المَرْتَبَةَ تَسْتَلْزِمُ مَسْؤُولِيَّةً. وَيَكْتَسِبُ مَفْهُومُ الخِلَافَةِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ دَلَالَتَهُ مِنْ هَذِهِ الجَامِعِيَّةِ. فَلَا تَقُومُ الخِلَافَةُ عَلَى السِّيَادَةِ المَادِيَّةِ عَلَى العَالَمِ فَقَطْ بَلْ عَلَى مَرْتَبَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَوُجُودِيَّةٍ. يَقُولُ ابْنُ عَرَبِي فِي وَصْفِ الإِنْسَانِ وَالخَلِيفَةِ: «فَأَمَّا إِنْسَانِيَّتُهُ فَلِعُمُومِ نَشْأَتِهِ وَحَصْرِهِ الحَقَائِقَ كُلَّهَا»2.(ابن عربي،1946 ،ص347 ). وَتُعَدُّ هَذِهِ العِبَارَةُ مِفْتَاحًا أَسَاسِيًّا لِفَهْمِ «الكَوْنِ الجَامِعِ»؛ لِأَنَّ ابْنَ عَرَبِي يَرْبِطُ الإِنْسَانِيَّةَ نَفْسَهَا بِعُمُومِ النَّشْأَةِ وَحَصْرِ الحَقَّائِقِ. فَالْخِلَافَةُ، بِهَذَا المَعْنَى، لَيْسَتْ وَظِيفَةً خَارِجِيَّةً أُلْحِقَتْ بِالإِنْسَانِ بَعْدَ خَلْقِهِ، بَلْ هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِبِنْيَتِهِ الجَامِعَةِ. وَمِنْ ثَمَّ يُمْكِنُ تَقْرِيرُ العَلَاقَةِ عَلَى النَّحْوِ الآتي: الجَمْعِيَّةُ ← الإِنْسَانُ الكَامِلُ← الكَوْنُ الجَامِعُ ← الخِلَافَةُ.

فَلَا يَسْتَحِقُّ الإِنْسَانُ مَرْتَبَةَ الخِلَافَةِ لِقُوَّتِهِ الجَسَدِيَّةِ، بَلْ لِأَنَّهُ صَاحِبُ النَّشأةِ الَّتِي تَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ فِي العَالَمِ. وَهُنَا يَنْفَتِحُ البُعْدُ الأَخْلَاقِيُّ لِمَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ فَمَنْ كَانَ أَكْثَرَ جَمْعِيَّةً وَمَعْرِفَةً كَانَ أَشَدَّ مُطَالَبَةً بِأَنْ تَنْعَكِسَ هَذِهِ المَعْرِفَةُ عَلَى سُلُوكِهِ. وَبِهَذَا تُصْبِحُ الخِلَافَةُ مَفْهُومًا يَجْمَعُ بَيْنَ المَرْتَبَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ .

**الإِنْسَانُ وَالأَسْمَاءُ الإِلَهِيَّةُ:**

تَحْتَلُ الأَسْمَاءُ الإِلَهِيَّةُ مَوْقِعًا أَسَاسِيًّا فِي تَصَوُّرِ ابْنِ عَرَبِي لِلإِنْسَانِ؛ إِذْ يَرْتَبِطُ مَفْهُومُ الجَمْعِيَّةِ بِقَابِلِيَّةِ الإِنْسَانِ لِلتَّحَقُّقِ بِمَعَانِي الْأَسْمَاءِ عَلَى نَحْرٍ أَوْسَعَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ المَوْجُودَاتِ. وَهُنَا لَا يَعْنِي التَّحَقُّقُ بِالْأَسْمَاءِ مُجَرَّدَ مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهَا أَوْ حِفْظِهَا، بَلْ يَتَّصِلُ بِظُهُورِ آثَارِهَا فِي الذَّاتِ عَلَى قَدْرِ مَا يَلِيقُ بِالمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِيَّةِ1.(ابن عربي،1946 ،ص348 ). وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ المَعْرِفَةَ تَتَجَاوَزُ المُسْتَوَى الذِّهْنِيَّ إِلَى التَّحَقُّقِ؛ فَمَعْرِفَةُ الرَّحْمَةِ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، لَا تَكْتَمِلُ إِذَا بَقِيَتْ مَفْهُومًا مُجَرَّدًا دُونَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى أَثَرٍ فِي السُّلُوك..

ويُمْكِنُ القول انه لا يمكن فَهْمُ «الكَوْنِ الجَامِعِ» عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ بِمَعْزِلٍ عَنْ نَظَرِيَّتِهِ فِي الأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ تَعَدُّدَ الأَسْمَاءِ يُقَابِلُ تَعَدُّدَ مَظَاهِرِ الوُجُودِ. فَكُلُّ مَوْجُودٍ يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ دَلَالَاتِ الأَسْمَاءِ مَا يُنَاسِبُ اسْتِعْدَادَهُ وَمَرْتَبَتَهُ2.(ابن عربي،1946 ،ص348 ). غَيْرَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَمَيَّزُ بِاتِّسَاعِ قَابِلِيَّتِهِ. وَيَسْتَنِدُ هَذَا التَّصَوُّرُ إِلَى الدَّلَالَةِ القُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا} "البقرة: 31". فَتَحْظَى كَلِمَةُ «كُلَّهَا» بِأَهَمِّيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي البِنَاءِ العِرْفَانِيّ لِمَفْهُومِ آدَمَ؛ إِذْ تَتَّصِلُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ بِخَاصِيَّةِ الجَمْعِ الَّتِي تُمَيِّزُ النَّشْأَةَ الإِنْسَانِيَّةَ. وَمِنْ ثَمَّ، لَا يَكُونُ تَعْلِيمُ الْأَسْمَاءِ مُجَرَّدَ تَعْلِيمٍ لُغَوِيّ، بَلْ يَكْتَسِبُ دَلَالَةً وُجُودِيَّةً وَمَعْرِفِيَّةً فِي تَأْوِيلِ ابْنِ عَرَبِيّ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ هُوَ المَوْجُودُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْرِفَ تَعَدُّدَ الوُجُوهِ وَيَجْمَعَ بَيْنَهَا دُونَ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ نَظَرِيَّةَ الأَسْمَاءِ تُسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ الانتِقَالِ مِنَ المِيتَافِيزِيقَا إِلَى الْأَخْلَاقِ فِي تَصَوُّرِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ.

ولَا تَنْفَصِلُ الْجَامِعِيَّةُ الْوُجُودِيَّةُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ عَنِ الْجَامِعِيَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ؛ لأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَحْمِلُ فِي نَشْأَتِهِ قَابِلِيَّةَ الْجَمْعِ يَحْمِلُ أَيْضًا قَابِلِيَّةَ مَعْرِفَةِ الْمَرَاتِبِ الْمُخْتَلِفَةِ3.(ابن عربي،1946 ،ص349 ). وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُ آدَمَ الْأَسْمَاءَ فِي التَّأْوِيلِ الْأَكْبَرِيّ حَادِثَةً مَعْرِفِيَّةً عَابِرَةً، بَلْ كَشْفًا عَنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهَا. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} "الْبَقَرَةِ:31" ويتضح مما سبق عُمُومِ الْقَابِلِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلْمَعْرِفَةِ. وَالْمَعْرِفَةُ هُنَا لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ إِدْرَاكِ الْمَعْلُومَاتِ، بَلْ تَصِيرُ مَعْرِفَةً بِالْمَرَاتِبِ وَالنِّسَبِ وَالدَّلَالَاتِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ التَّمْيِيزُ

بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ: مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ فِي ذَاتِهِ، وَمَعْرِفَةُ مَوْقِعِهِ فِي نِظَامِ الْوُجُودِ.وَالْعَارِفُ الْكَامِلُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ لَا يَقِفُ عِنْدَ الْمُسْتَوَى الْأَوَّلِ، بَلْ يَرْتَقِي إِلَى الْمُسْتَوَى الثَّانِي، فَيَرَى الْعَلَاقَاتِ وَالنِّسَبَ وَيَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ. وَبِهَذَا يَتَحَوَّلُ مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ إِلَى مَفْهُومٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِبِسْتِيمُولُوجِيَا وَالْمِيتَافِيزِيقَا..

**الصُّورَةُ وَمَعْنَى الكَمَالِ::**

يَرْتَبِطُ مَفْهُومُ الصُّورَةِ بِمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيَّ؛ فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ جُزْءٍ مِنْ صُورَةِ العَالَمِ، بَلْ يَحْمِلُ فِي بِنَائِهِ خَاصِيَّةَ الجَمْعِ. وَيُشِيرُ الفَصُّ الأَدَمِيُّ إِلَى هَذَا المَعْنَى فِي سِيَاقِ العَلَاقَةِ بَيْنَ آدَمَ وَالعَالَمِ وَالأَسْمَاءِ1.(ابن عربي،1946،ص346 ). فَالْجَامِعِيَّةُ لَا تَعْنِي أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ بَشَرِي قَدْ حَقَّقَ فِعْلًا مَرْتَبَةَ «الكَوْنِ الْجَامِعِ». إِذْ يَنْبَغِي التَّمْيِيزُ بَيْنَ الاسْتِعْدَادِ الإِنْسَانِيِّ لِلْكَمَالِ وَالتَّحَقُّقِ بِمَرْتَبَةِ الكَمَالِ والإِنْسَانُ الكَامِلُ هُوَ الَّذِي تَتَحَقَّقُ فِيهِ الجَمْعِيَّةُ عَلَى نَحْوٍ أَتَمَّ؛ وَمِنْ هُنَا يَرْبِطُ ابْنُ عَرَبِي بَيْنَ الإِنْسَانِيَّةِ وَعُمُومِ النَّشْأَةِ وَجَمْعِ الحَقَائِقِ. وَمِنْ أَدَقِّ عِبَارَاتِهِ فِي قُصُوصِ الحِكَمِ وَصْفُهُ لِلإِنْسَانِ بِأَنَّهُ: «الكَلِمَةُ الفَاصِلَةُ الجَامِعَةُ»2.(ابن عربي،1946،ص347 )

وَهَذَا الوَصْفُ يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَبْدُو أَنَّهُمَا مُتَقَابِلَانِ: الفَصْلُ وَالجَمْعُ فَهُوَ «جَامِعٌ» لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ نَسْأَتُهُ مِنْ حَقَائِقَ وَمَرَاتِبَ، وَهُوَ «فَاصِلٌ» مِنْ حَيْثُ إِنَّ الجَمْعَ لَا يُلْغِي الفُرُوقَ بَيْنَ المَرَاتِبِ. وَهُنَا تَظْهَرُ قِيمَةُ المَفْهُومِ فَلْسَفِيًّا؛ فَالكَمَالُ لَا يَكْمُنُ فِي إِلْغَاءِ التَّعَدُّدِ، بَلْ فِي القُدْرَةِ عَلَى جَمْعِ التَّعَدُّدِ دُونَ إِبْطَالِهِ. وَيَتضح أَنَّ الكَمَالَ لَا يَعْنِي أَنْ يَخْرُجَ الإِنْسَانُ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ، بَلْ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِهَا عَلَى نَحْوٍ أَتَمَّ. فَالإِنْسَانُ الكَامِلُ لَيْسَ إِنْسَانًا أَلْغَى بَشَرِيَّتَهُ، بَلْ إِنْسَانٌ تَحَقَّقَ بِمُقْتَضَيَاتِ مَرْتَبَتِهِ، وَصَارَتْ قُوَاهُ وَمَعْرِفَتُهُ وَإِرَادَتُهُ مُنْتَظِمَةً فِي وَحْدَةِ رُوحٍ.

ومِنْ أَعْمَقِ مَا يُمَيِّزُ مَفْهُومَ الْإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي أَنَّهُ يَرْبِطُ بَيْنَ نَشْأَةِ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ مَا يُسَمِّيهِ الْجَمْعَ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ: صُورَةِ الْعَالَمِ وَالصُّورَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. وَفِي الْفَصِ الْآدَمِي يَجْعَلُ ابْنُ عَرَبِي اسْتِحْقَاقَ آدَمَ لِلْخِلَافَةِ مُرْتَبِطًا بِهَذِهِ الْجَامِعِيَّةِ؛ فَهُوَ يَجْمَعُ مَا لَا تَجْمَعُهُ سَائِرُ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ. وَبِذَلِكَ تَصْبِحُ الْجَامِعِيَّةُ أَصْلَ مَنْزِلَتِهِ وَسَبَبَ خِلَافَتِهِ1.(ابن عربي،1946 ،ص348 ) وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَصِيرُ إِلَهًا أَوْ أَنَّ ذَاتَهُ تَتَّحِدُ بِالذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ؛ فَهَذَا فَهْمٌ يُفْسِدُ دِقَّةَ النَّسَقِ الْأَكْبَرِي. بَلِ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَحَلٌّ أَوْسَعُ لِظُهُورِ آثَارِ الْأَسْمَاءِ، مَعَ بَقَاءِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْخَلْقِ. وَهُنَا تَبْرُزُ أَهَمِّيَّةُ مَفْهُومِ الْمَظْهَرِ؛ فَالتَّجَلِّي لَا يَعْنِي انْتِقَالَ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ إِلَى الْإِنْسَانِ، بَلْ يَعْنِي ظُهُورَ أَثَرِ الاسْمِ أو الصِّفَةِ فِي مَحَةٍ مُعَيَّنٍ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ. وَبِهَذَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ أَتَمَّ الْمَظَاهِرِ جَمْعًا، لَا لِأَنَّهُ يَحْتَكِرُ التَّجَلِّي، بَلْ لِأَنَّ قَابِلِيَّتَهُ أَوْسَعُ مِنْ قَابِلِيَّةِ الْمَوْجُودِ الْجُزْئِي الْمُقَيَّدِ بِاسْمٍ أَوْ وَصْفٍ أَوْ مَرْتَبَةٍ مُحَدَّدَةٍ.

**المَطْلَبُ الثَّانِي:**

مَعْرِفَةُ الذَّاتِ وَالسُّلُوكُ الصُّوفِيُّ فِي طَرِيقِ التَّحَقُّقِ بِالكَمَالِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ:

إِذَا كَانَ المَطْلَبُ السَّابِقُ قَدْ كَشَفَ عَنِ الأُسُسِ الوُجُودِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي تُفَسِّرُ مَرْتَبَةَ الإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي، فَإِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَفْرِضُ نَفْسَهُ هُنَا هُوَ: هَلْ تَكْفِي المَرْتَبَةُ الوُجُودِيَّةُ لِتَحَقُّقِ الكَمَالِ، أَمْ أَنَّ الإِنْسَانَ مُطَالَبٌ بِمَسَارٍ مِنَ التَّزْكِيَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ حَقِيقَتُهُ مِنْ إِمْكَانٍ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ يَنْقُلُ البَحْثَ مِنْ أُنْطُولُوجِيَا الْإِنْسَانِ إِلَى فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الإِنْسَانِ؛ أَيْ مِنَ السُّؤَالِ عَمَّا يَكُونُهُ الإِنْسَانُ فِي مَرْتَبَتِهِ، إِلَى السُّؤَالِ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحَقُّقِهِ بِمُقْتَضَيَاتِ تِلْكَ المَرْتَبَةِ. وَمِنْ هُنَا تَتَجَلَّى أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ، وَتَزْكِيَتِهَا، وَالمُجَاهَدَةِ، وَالمُرَاقَبَةِ، وَالمَعْرِفَةِ الذَّوْقِيَّةِ، وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ فِي تَحْوِيلِ الإِمْكَانِ الإِنْسَانِي إِلَى تَحَقُّقٍ..

**مَعْرِفَةُ الذَّاتِ مَدْخَلًا إِلَى التَّحَقُّقِ:**

تَحْتَلُّ مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ مَوْقِعًا خَاصًّا فِي الرُّؤْيَةِ الصُّوفِيَّةِ؛ لِأَنَّ الذَّاتَ الَّتِي تَجْهَلُ حَقِيقَتَهَا تَظَلُّ عَاجِزَةً عَنْ إِدْرَاكِ حُدُودِهَا وَاسْتِعْدَادِهَا وَغَايَتِهَا. وَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي، لَا تَقِفُ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ عِنْدَ حُدُودِ المَعْرِفَةِ النَّفْسِيَّةِ بِالمَعْنَى المُعَاصِرِ، بَلْ تَتَّسِعُ لِتُصْبِحَ مَدْخَلًا إِلَى فَهْمِ مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ فِي الوُجُودِ؛ فَالإِنْسَانُ، بِجَمْعِيَّتِهِ، يَحْمِلُ فِي بِنَائِهِ مَا يَجْعَلُ النَّظَرَ فِي حَقِيقَتِهِ طَرِيقًا لِفَهْمِ مَعَانٍ أَوْسَعَ مِنْ حُدُودِ فَرْدِيَّتِهِ1.(ابن عربي،1946 ،ص287)

وَيَتَّصِلُ هَذَا المَعْنَى بِالفَصِ الْآدَمِيّ؛ إِذْ يَجْعَلُ ابْنُ عَرَبِي النَّشْأَةَ الإِنْسَانِيَّةَ جَامِعَةً، وَيَرْبِطُ هَذِهِ الجَمْعِيَّةَ بِمَرْتَبَةِ آدَمَ وَالخِلَافَةِ2.(ابن عربي،1946،ص289 ).

وَلَكِنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ هُنَا لَا تُؤَدِّي إِلَى تَضْخِيمِ الْأَنَا، بَلْ إِلَى كَشْفِ افْتِقَارِهَا؛ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الإِنْسَانُ مَعْرِفَةً بِحَقِيقَتِهِ، أَدْرَكَ حُدُودَهُ وَافْتِقَارَهُ وَأَنَّ مَا فِيهِ مِنْ قَابِلِيَّةٍ لِلكَمَالِ لَا يَعْنِي اسْتِقْلَالَهُ بِالكَمَالِ. وَمِنْ هُنَا تَتَحَوَّلُ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ إِلَى مَعْرِفَةٍ تَحْمِلُ بُعْدًا أَخْلَاقِيًّا؛ لأَنَّهَا تَهْدِمُ وَهُمَ الاسْتِغْنَاءِ، وَتُؤَسِّسُ لِلتَّوَاضُعِ وَالعُبُودِيَّةِ. ويقدم ابْنُ عَرَبِيّ صُورَةً دَقِيقَةً أُخْرَى فِي شَرْحِ مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ، فَيَرْبِطُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَإِنْسَانِ العَيْنِ، وَيَقُولُ: "وَهُوَ لِلْحَقِّ بِمَنْزِلَةِ إِنْسَانِ العَيْنِ مِنَ العَيْنِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ النَّظَرُ"3.(ابن عربي،1946،ص293 ). وَلَا يَنْبَغِي قِرَاءَةُ هَذَا النَّصِ قِرَاءَةً حَرْفِيَّةً، بَلْ ضِمْنَ مَنْطِقِ المِرْآةِ وَالتَّجَلِّي الَّذِي يَحْكُمُ خِطَابَ ابْنِ عَرَبِيّ. كَمَا أَنَّ العَيْنَ تَحْتَاجُ فِي فِعْلِ الإِبْصَارِ إِلَى بِنْيَتِهَا المُهَيَّأَةِ لِلنَّظَرِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَحْتَلُّ فِي العَالَمِ مَرْتَبَةَ المَجْلَى الجَامِعِ وَهُنَا تَبْلُغُ رَمْزِيَّةُ المِرْآةِ ذُرْوَتَهَا: العَالَمُ مِرْآةٌ، وَالإِنْسَانُ جَلَاءُ المِرْآةِ، وَالإِنْسَانُ الكَامِلُ أَتَمُّ مَجَالِي الجَمْعِ. إِنَّ القِيمَةَ الحَقِيقِيَّةَ لِمَفْهُومِ «الكَوْنِ الجَامِعِ» لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ التَّأَمُّلِ المِيتَافِيزِيقِي، بَلْ تَمْتَدُّ إِلَى التَّجْرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ. فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ يَحْمِلُ اسْتِعْدَادًا لِلجَمْعِ، فَإِنَّ طَرِيقَ الكَمَالِ يَتَطَلَّبُ تَزْكِيَةَ هَذَا الاسْتِعْدَادِ وَتَحْقِيقَهُ مَعْرِفِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا وَرُوحِيًّا1. (ابن مسكويه،2015،ص145 ).

وَمِنْ هُنَا لَا يَكُونُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ فِكْرَةً نَظَرِيَّةً مُجَرَّدَةً، بَلْ يُعَبِّرُ عَنْ غَايَةِ السَّيْرِ الرُّوحِيّ: أَنْ يَتَجَاوَزَ الإِنْسَانُ ضِيقَ الأَنَا وَهَيْمَنَةَ الْأَهْوَاءِ، وَأَنْ يَتَحَقَّقَ بِالعُبُودِيَّةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّخَلُّقِ. وَبِذَلِكَ يَكْتَسِبُ مَفْهُومُ «الكَوْنِ الجَامِعِ» بُعْدًا أَخْلَاقِيًّا أَيْضًا؛ فَالجَمْعِيَّةُ الحَقَّةُ لَا تَعْنِي تَضَخُّمَ الذَّاتِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، تَعْنِي تَحَرُّرَهَا مِنْ ضِيقِ الأَنَانِيَّةِ وَانْفِتَاحَهَا عَلَى حَقَائِقِ الوُجُودِ. والْجَامِعِيَّةُ تَقْتَضِي سَعَةَ الرُّؤْيَةِ، وَسَعَةُ الرُّؤْيَةِ تَقْتَضِي التَّحَرُّرَ مِنَ الانْحِبَاسِ فِي الْأَنَا. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَحْيَا فِي مَرْتَبَةِ التَّعَصُّبِ لِذَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَمَصَالِحِهِ الْجُزْئِيَّةِ لَمْ يَتَحَقَّقْ بَعْدُ بِمَعْنَى الْجَامِعِيَّةِ، وَلَوْ كَانَ يَمْلِكُ اسْتِعْدَادَهَا. أَمَّا الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ فَيَتَجَاوَزُ ضِيقَ الْأَنَا، لأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ جُزْءًا مِنْ نِظَامٍ وُجُودِيٍ أَوْسَعَ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى تُصْبِحُ التَّزْكِيَةُ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِ الْجَامِعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي تَسْتَبِدُّ بِهِ الْأَهْوَاءُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ مِرْآةً صَافِيَةً. وَهُنَا رَمْزِيَّةُ الْمِرْآةِ وَالْجَلَاءِ تَكْتَسِبُ بُعْدًا تَرْبَوِيًّا، فَكَمَا تَحْتَاجُ الْمِرْآةُ إِلَى الْجَلَاءِ لِتُظْهِرَ الصُّورَةَ بِوُضُوحٍ، تَحْتَاجُ النَّفْسُ إِلَى التَّهْذِيبِ وَالتَّزْكِيَةِ لِتَتَحَقَّقَ بِقَابِلِيَّتِهَا الْأَصْلِيَّةِ.

**الدَّلَالَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِلانْتِقَالِ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَى الكَوْنِ الجَامِعِ:**

تَكْمُنُ إِحْدَى أَهَمِّ الدَّلَالَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ لِمَفْهُومِ «الْكَوْنِ الْجَامِعِ» فِي أَنَّهُ يُعِيدُ صِيَاغَةَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْعَالَمِ. فَفِي الرُّؤْيَةِ الْعَادِيَّةِ يَبْدُو الْإِنْسَانُ ذَاتًا مُقَابِلَةً لِعَالَمٍ خَارِجِي، أَمَّا فِي الرُّؤْيَةِ الْأَكْبَرِيَّةِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَالْعَالَمَ يَتَدَاخَلَانِ فِي شَبَكَةٍ مِنَ التَّنَاظُرَاتِ وَالْعَلَاقَاتِ. فَالْإِنْسَانُ جُزْءٌ مِنَ الْعَالَمِ بِحَسَبِ صُورَتِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي الْعَالَمِ بِحَسَبِ بِنْيَتِهِ الْكُلِّيَّةِ2.(ابن عربي،1946،ص294 ). وَمِنْ ثُمَّ يَتَجَاوَزُ ابْنُ عَرَبِي الْمُقَابَلَةَ الْبَسِيطَةَ بَيْنَ «ذَاتٍ» وَ«مَوْضُوعٍ»، وَيُقَدِّمُ بَدَلًا مِنْهَا رُؤْيَةً قَائِمَةً عَلَى التَّنَاظُرِ وَالْجَمْعِ وَالتَّجَلِّي. وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَصِيرُ الْإِنْسَانُ «عَالَمًا» لَا مِنْ حَيْثُ الْحَمْ، بَلْ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى؛ وَيَصِيرُ الْعَالَمُ «إِنْسَانًا» مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَكْتَمِلُ بِظُهُورِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ فِيهِ. وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ مَعْنَى تَشْبِيهِ الْعَالَمِ بِالْمِرْآةِ الَّتِي يَكْتَمِلُ جَلَاؤُهَا بِالْإِنْسَانِ.

وَيَكْشِفُ هَذَا التَّحَوُّلُ عَنْ أَنَّ ابْنَ عَرَبِيّ لَا يَبْنِي مَفْهُومَهُ لِلإِنْسَانِ عَلَى ثُنَائِيَّةِ الإِنْسَانِ وَالعَالَمِ، بَلْ عَلَى عَلَاقَةِ التَّنَاظُرِ وَالجَمْعِ بَيْنَهُمَا. فَالإِنْسَانُ لَيْسَ غَرِيبًا عَنِ الكَوْنِ، وَلَا الكَوْنُ مَوْضُوعًا خَارِجِيًّا مُنْفَصِلًا عَنْهُ انفِصَالًا مُطْلَقًا؛ إِذْ تَنْعَكِسُ مَرَاتِبُ العَالَمِ فِي بِنْيَةِ الإِنْسَانِ. وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ تَحَوُّلٌ فِي مَعْنَى مَعْرِفَةِ الذَّاتِ؛ فَمَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ لَا تَبْقَى مَعْرِفَةً نَفْسِيَّةً فَقَطْ بَلْ تَصِيرُ طَرِيقًا لِفَهْمِ مَرْتَبَتِهِ فِي العَالَمِ وَحُدُودِ عُبُودِيَّتِهِ وَقَابِلِيَّتِهِ المَعْرِفِيَّةِ. وَبِهَذَا يُمْكِنُ النَّظَرُ إِلَى «الكَوْنِ الجَامِعِ» عَلَى أَنَّهُ ذُرْوَةُ الوجودي الصُّوفِيَّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ؛ لِأَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الإِنْسَانِ يَتَّسِعُ حَتَّى يُصْبِحَ سُؤَالًا عَنْ مَعْنَى الوُجُودِ وَمَرَاتِبِهِ وَالعَلَاقَةِ بَيْنَ الوَحْدَةِ وَالكَثْرَةِ.

ويمكن القول ان مَفْهُومُ "الْكَوْنِ الْجَامِعِ" يرتبط فِي الْبِنَاءِ الْأَكْبَرِي بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ، مِنْهَا الْمُخْتَصَرُ الشَّرِيفُ، وَالْكَلِمَةُ الْجَامِعَةُ، وَنُسْخَةُ الْعَالَمِ، وَالْعَالَمُ الْأَصْغَرُ. وَتَدُورُ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتُ حَوْلَ مَعْنَى وَاحِدٍ، هُوَ أَنَّ مَا يَظْهَرُ فِي الْعَالَمِ عَلَى نَحْوِ التَّفْصِيلِ يَجْتَمِعُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى نَحْوِ الْإِجْمَالِ وَالْجَمْعِ1. (ابن

عربي،1946،ص294 ).وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ هُوَ نَصٌّ وُجُودِيٌّ مُكَثَّفٌ؛ فَالْعَالَمُ يُقْرَأُ فِيهِ، وَالْإِنْسَانُ يُقْرَأُ وَهَذَا التَّنَاظُرُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْكَوْنِ يَتَجَاوَزُ الْمُشَابَهَةَ الْمَجَازِيَّةَ؛ لِأَنَّهُ يَقُومُ عَلَى فِكْرَةِ أَنَّ نَشْأَةَ الْإِنْسَانِ تَجْمَعُ مَرَاتِبَ مُتَعَدِّدَةً مِنَ الْوُجُودِ. فَفِي الْإِنْسَانِ جِسْمٌ يَرْبِطُهُ بِعَالَمِ الطَّبِيعَةِ، وَنَفْسٌ تَرْبِطُهُ بِعَالَمِ الْإِدْرَاكِ وَالانْفِعَالِ، وَعَقْلٌ يُمَكِّنُهُ مِنَ التَّجْرِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَرُوحٌ تَفْتَحُ أُفُقَهُ عَلَى الْمَعْنَى وَالْغَيْبِ2.(ابن عربي،1946،ص294). وَبِهَذَا يَصِيرُ الْإِنْسَانُ مَوْضِعَ تَقَاطُعِ لِلْمَرَاتِبِ، وَهُوَ مَا يَفْسِرُ قُدْرَتَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ «كَوْنًا جَامِعا.«

**التَّزْكِيَةُ وَتَصْفِيَةُ المَحَلّ:**

إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ فِي التَّصَوُّرِ الْأَكْبَرِي مَحَلًّا لِلتَّجَلِّي، فَإِنَّ قَابِلِيَّةَ المَحَلِ تَكْتَسِبُ أَهَمِّيَّةً خَاصَّةً فِي فَهْمِ السُّلُوكِ. فَلَا يَكْفِي وُجُودُ القَابِلِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الأَصْلُ، بَلْ يَتَطَلَّبُ التَّحَقُّقُ تَصْفِيَةَ القَلْبِ وَتَهْذِيبَ النَّفْسِ. وَهُنَا تَكْتَسِبُ صُورَةُ المِرْآةِ دَلَالَةً سُلُوكِيَّةً إِضَافِيَّةً؛ فَكَمَا أَنَّ المِرْآةَ لَا تَكْشِفُ الصُّورَةَ عَلَى وَجْهِهَا إِذَا غَطَّاهَا الصَّدَأُ، فَإِنَّ القَلْبَ المَحْجُوبَ بِالتَّعَلُّقَاتِ وَالأَهْوَاءِ لَا يَتَلَقَّى المَعْرِفَةَ عَلَى الوَجْهِ نَفْسِهِ الَّذِي يَتَلَقَّاهَا بِهِ القَلْبُ المُصَفَّى. وَقَدْ أَسَّسَ ابْنُ عَرَبِي فِي الفَصِ الآدَمِيّ لِصُورَةِ المِرْآةِ والجَلَاءِ فِي تَفْسِيرِهِ مَكَانَةَ آدَمَ فِي العَالَمِ1.(ابن عربي،1946،ص48). وَإِنْ كَانَ السِّيَاقُ هُنَاكَ وُجُودِيًّا فِي الأَصْلِ، فَإِنَّ البِنْيَةَ نَفْسَهَا تُسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ مَعْنَى التَّصْفِيَةِ فِي السُّلُوكِ فَكُلَّمَا صَفَا المَحَلُّ اتَّسَعَتْ قَابِلِيَّتُهُ لِلْمَعْرِفَةِ وَالحُضُورِ .وبالتالي إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ نُسْخَةً جَامِعَةً لِحَقَائِقِ الْعَالَمِ، فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ لِنَفْسِهِ تَتَحَوَّلُ إِلَى مَدْخَلٍ لِمَعْرِفَةِ الْوُجُودِ. وَهَذَا هُوَ مَا يُصْفِي عَلَى مَعْرِفَةِ النَّفْسِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي طَابَعًا مِيتَافِيزِيقِيًّا؛ فَلَيْسَتْ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ عِنْدَهُ مُجَرَّدَ تَحْلِيلٍ لِلْمَشَاعِرِ أو الدَّوَافِعِ، بَلْ هِيَ مَعْرِفَةٌ بِالْبِنْيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِوَصْفِهَا مَجْمَعًا لِلْمَرَاتِبِ. وَمِنْ هُنَا تَكْتَسِبُ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الذَّاتِ وَالْكَوْنِ بُعْدًا جَدِيدًا؛ فَالْإِنْسَانُ لَا يَكْتَشِفُ الْكَوْنَ مِنْ خَارِجِهِ فَقَطْ بَلْ يَكْتَشِفُ فِي ذَاتِهِ آثَارًا وَدَلَالَاتٍ تُحِيلُ إِلَى مَرَاتِبَ الْوُجُودِ. وَلِذَلِكَ فَإِنَّ السَّيْرَ الصُّوفِيَّ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ عَلَى أَنَّهُ رِحْلَةٌ مِنَ الْجُزْئِيَّةِ إِلَى الْجَامِعِيَّةِ؛ يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ فِيهَا أَسِيرًا لِذَاتِهِ الْفَرْدِيَّةِ، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ تَدْرِيجِيًّا ضِيقَ هَذِهِ الذَّاتِ لِيَعِيَ مَرْتَبَتَهُ الْأَوْسَعَ. وَهُنَا تَصِيرُ الْمَعْرِفَةُ تَحَوُّلًا فِي الْوُجُودِ، لَا مُجَرَّدَ زِيَادَةٍ فِي الْمَعْلُومَاتِ.

**المُجَاهَدَةُ وَفَاعِلِيَّةُ الذَّاتِ:**

لَا يُقَدِّمُ التَّصَوُّفُ الإِنْسَانَ بَوْصْفِهِ مُتَلَقِّيًا سَلْبِيًّا لِلكَمَال، بَلْ يَجْعَلُهُ مُطَالَبًا بِالمُجَاهَدَةِ وَالمُرَاقَبَةِ وَتَصْحِيحِ القَصْدِ وَمُقَاوَمَةِ مَا يَحْجُبُهُ عَنْ غَايَتِهِ. وَمِنْ مَنْظُورٍ فَلْسَفِيّ، تَكْشِفُ المُجَاهَدَةُ عَنْ فَاعِلِيَّةِ الذَّاتِ فِي صُنْعِ ذَاتِهَا؛ فَالإِنْسَانُ لَا يَبْقَى أَسِيرَ مَا وَجَدَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ، بَلْ يَمْلِكُ إِمْكَانَ العَمَلِ عَلَى نَفْسِهِ وَتَحْوِيلِ عَادَاتِهِ وَتَوْجِيهِ إِرَادَتِهِ. وَلِذَلِكَ فَإِنَّ بِنَاءَ الذَّاتِ الصُّوفِيَّةِ يَقُومُ عَلَى تَوَازُن دَقِيقٍ بَيْنَ الاسْتِعْدَادِ وَالكَسْبِ؛ فَالقَابِلِيَّةُ تَفْتَحُ إِمْكَانَ التَّرَقّي، أَمَّا السُّلُوكُ فَيُحَوّلُ هَذَا الإِمْكَانَ إِلَى مَسَارٍ فِعْلِيّ.

وَهُنَا تَتَّضِحُ صِلَةُ المَفْهُومِ بِمَوْضُوعِ البَحْثِ: فَبِنَاءُ الذَّاتِ لَا اخْتِرَاعَ ذَاتٍ جَدِيدَةٍ، بَلْ تَحْقِيقَ مَا تَحْمِلُهُ الذَّاتُ مِنْ قَابِلِيَّاتٍ فِي أَكْمَلَ. ولذلك يَحْتَلُ القَلْبُ مَرْكَزًا رَئِيسًا عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَوْضِعٍ لِلْعَاطِفَةِ، بَلْ لَهُ وَظِيفَةٌ مَعْرِفِيَّةٌ وَرُوحِيَّةٌ. وَيَتَّصِلُ القَلْبُ عِنْدَهُ بِمَعْنَى التَّقَلُّبِ وَتَنَوُّعِ التَّجَلِّيَاتِ؛ فَلَا يَكُونُ كَمَالُهُ فِي الجُمُودِ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ فِي سَعَتِهِ لِلتَّلَقِي وَمَعْرِفَةِ التَّجَلِّيَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا. وَيَظْهَرُ هَذَا المَعْنَى بِصُورَةٍ بَارِزَةٍ فِي الفَصِ الشُّعَيْبِي مِنْ فُصُوصِ الحِكَمِ، حَيْثُ يَرْبِطُ ابْنُ عَرَبِيّ القَلْبَ بِالتَّقَلُّبِ وَبِتَنَوُّعِ الصُّوَرِ الَّتِي يَرِدُ فِيهَا التَّجَلِّي1.(ابن عربي،1946،ص85). وَهَذَا يَسْمَحُ بِقِرَاءَةِ الكَمَالِ المَعْرِفِي عَلَى أَنَّهُ اتِّسَاعٌ فِي القَابِلِيَّةِ، لَا انْغِلَاقٌ عَلَى تَصَوُّرٍ وَاحِدٍ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ بِنَاءَ الذَّاتِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي يَتَضَمَّنُ تَرْبِيَةَ القَلْبِ عَلَى السَّعَةِ، وَهِيَ سَعَةٌ لَا تَعْنِي إِلْغَاءَ التَّمْيِيزِ، بَلْ تَعْنِي تَجَاوُزَ ضِيقِ الرُّؤْيَةِ.

**المَعْرِفَةُ الذَّوْقِيَّةُ وَتَجَاوُزُ المَعْرِفَةِ المَفْهُومِيَّة:**

يُمَيِّزُ المَنْظُورُ الصُّوفِيُّ بَيْنَ المَعْرِفَةِ الَّتِي تُحَصَّلُ بِالنَّظَرِ وَالاسْتِدْلَالِ، وَالمَعْرِفَةِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِالذَّوْقِ وَالتَّحَقُّقِ. وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ رَفْضَ العَقْلِ، بَلْ يَعْنِي الإِقْرَارَ بِأَنَّ بَعْضَ أَبْعَادِ التَّجْرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ لَا يَكْفِي فِي إِدْرَاكِهَا التَّصَوُّرُ

الذِّهْنِيُّ وَحْدَهُ. فَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ يَعْرِفَ الإِنْسَانُ مَعْنَى حَالٍ، وَبَيْنَ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِهِ.وَهَذَا الفَرْقُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ المَعْرِفَةَ الصُّوفِيَّةَ عُنْصُرًا فِي بِنَاءِ الذَّاتِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَضَعُ الحَقِيقَةَ خَارِجَ العَارِفِ فَقَطْ بَلْ تَطْلُبُ أَنْ تَتَحَوَّلَ المَعْرِفَةُ إِلَى وَصْفٍ مُتَحَقِّقٍ فِي العَارِفِ. وَهُنَا يَتَجَلَّى أَحَدُ أَوْجُهِ الفَرْقِ بَيْنَ الكَمَالِ النَّظَرِيِّ وَالكَمَالِ الصُّوفِيِّ: فَالأَوَّلُ قَدْ يَكْتَفِي بِصِحَّةِ التَّصَوُّرِ، أَمَّا الثَّانِي فَيَطْلُبُ تَحَوُّلَ التَّصَوُّرِ إِلَى وُجُودٍ مَعِيشٍ وَهُنَا يَأْتِي اهمية مَفْهُومُ الفَنَاءِ، فَالْفَنَاءُ فِي سِيَاقِ بِنَاءِ الذَّاتِ، لَا يَعْنِي إِفْنَاءَ الشَّخْصِيَّةِ أَوْ إِبْطَالَ المَسْؤُولِيَّةِ، بَلْ يَتَّصِلُ بِتَجَاوُزِ سُلْطَانِ الأنا وَدَعْوَاهَا الاسْتِقْلَالَ وَالاسْتِغْنَاءَ وَلِهَذَا لَا تَنْتَهِي التَّجْرِبَةُ الصُّوفِيَّةُ عِنْدَ الفَنَاءِ، بَلْ تَتَّصِلُ بِالبَقَاءِ؛ أَيِ عَوْدَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْفِعْلِ والحُضُورِ وَالمَسْؤُولِيَّة بَعْدَ تَحَوُّلِ مَرْكَزِ وَعْيِه. حيث يَكُونُ الفَنَاءُ نَقْدًا لِلذَّاتِ المُغْلَقَةِ، وَيَكُونُ البَقَاءُ إِعَادَةَ تَأْسِيسٍ لِلذَّاتِ عَلَى وَعْيٍ أَكْثَرَ تَحَقُّقًا.

## مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِلَى التَّخَلُّقِ:

لَا تَكْتَمِلُ مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي إِذَا بَقِيَتْ مَعْرِفَةً نَظَرِيَّةً مُنْفَصِلَةً عَنِ الأَثَرِ. فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ مُؤَهَّلًا لِلتَّحَقُّقِ بِمَعَانِي الْأَسْمَاءِ، فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالكَرَمِ وَالعَفْوِ وَالعَدْلِ لَا تَبْلُغُ غَايَتَهَا مَا لَمْ تَظْهَرْ آثَارُهَا فِي سُلُوكِهِ. وَهُنَا يَتَّصِلُ التَّحَقُّقُ بِالتَّخَلُّقِ؛ أَي إِنَّ المَعْرِفَةَ تَنْتَقِلُ مِنْ مَرْتَبَةِ الإِدْرَاكِ إِلَى مَرْتَبَةِ الوَصْفِ وَالسُّلُوكِ. وَمِنْ هُنَا يَكْشِفُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عَنْ بُعْدٍ أَخْلَاقِيَ أَصِيلٍ؛ فَالكَمَالُ الَّذِي لَا يَنْعَكِسُ عَلَى عِلَاقَةِ الإِنْسَانِ بِغَيْرِهِ يَظَلُّ كَمَالًا نَاقِصَ التَّحَقُّقِ1.(ابن عربي،301،1946). وإِذَا نُظِرَ إِلَى المَعَانِي السَّابِقَةِ فِي وَحْدَتِهَا، أَمْكَنَ القَوْلُ إِنَّ السُّلُوكَ الصُّوفِيَّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ فَلْسَفِيًّا بَوْصْفِهِ صِنَاعَةً لِلذَّاتِ. وَلَا تُرَادُ بِالصَّنَاعَةِ هُنَا صِيَاغَةُ الإِنْسَانِ وَفْقَ نَمُوذَجٍ خَارِجِيَ مَفْرُوضٍ عَلَيْهِ فَحَسْبُ، بَلْ تَحْوِيلُ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ قَابِلِيَّةٍ إِلَى تَحَقُّقٍ. فَالذَّاتُ تَعْمَلُ عَلَى نَفْسِهَا بِالتَّزْكِيَةِ، وَتُعِيدُ تَوْجِيهَ إِرَادَتِهَا بِالمُجَاهَدَةِ، وَتُوَسِعُ أُفُقَهَا بِالمَعْرِفَةِ، وَتَنْقُدُ أَنَانِيَّتَهَا بِالفَنَاءِ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى العَالَمِ فِي مَرْتَبَةِ البَقَاءِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ. وَبِذَلِكَ يَكُونُ مَسَارُ بِنَاءِ الذَّاتِ: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ تَزْكِيَتُهَا ← مُجَاهَدَتُهَا ← تَصْفِيَةُ القَلْبِ ← المَعْرِفَةُ ← التَّحَقُّقُ ← التَّخَلُّقُ.

وَهَذَا المَسَارُ يُؤَكِّدُ أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ لَيْسَ فِكْرَةً تُعْرَفُ فَحَسْبُ، بَلْ مَرْتَبَةٌ يُسْعَى إِلَى التَّحَقُّقِ بِمَعَانِيهَا. ويُمْكِنُ تَلْخِيصُ مَسَارِ التَّحَوُّلِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْجُزْئِي إِلَى الْإِنْسَانِ الْجَامِعِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ فِي أَرْبَعِ مَرَاحِلَ مُتَدَاخِلَة:

**أَوَّلاً:** الْإِنْسَانُ بِوَصْفِهِ مَوْجُودًا طَبِيعِيًّا جُزْئِيًّا، يَعِيشُ ضِمْنَ الْعَالَمِ وَيَخْضَعُ لِشُرُوطِهِ.

**ثَانِيًّا:** الْإِنْسَانُ بِوَصْفِهِ «عَالَمًا أَصْغَرَ»، تَجْتَمِعُ فِيهِ نَظَائِرُ مَرَاتِبِ الْعَالَمِ .

**ثَالِثًا:** الْإِنْسَانُ بِوَصْفِهِ حَامِلًا لِاسْتِعْدَادِ الْكَمَالِ، وَقَابِلًا لِمَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالتَّحَقُّقِ بِمَعَانِيهَا فِي حُدُودِ الْعُبُودِيَّةِ .

**رَابِعًا:** الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ بِوَصْفِهِ الْكَوْنَ الْجَامِعَ» الَّذِي تَبْلُغُ فِيهِ قَابِلِيَّةُ الْجَمْعِ أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ.

وَبِهَذَا لَا يَكُونُ الانْتِقَالُ مِنَ «الْإِنْسَانِ» إِلَى «الْكَوْنِ الْجَامِعِ» انْتِقَالًا مِنْ كَائِنٍ إِلَى كَائِنٍ آخَرَ، بَلْ هُوَ انْتِقَالٌ فِي مَرْتَبَةِ الْفَهْمِ وَالتَّحَقُّقِ. فَالْإِنْسَانُ الْكَامِلُ لَا يَفْقِدُ إِنْسَانِيَّتَهُ عِنْدَمَا يَتَحَقَّقُ بِالْجَامِعِيَّةِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ: يَبْلُغُ الْمَعْنَى الْأَتَمَّ لِإِنْسَانِيَّتِهِ.

## خُلَاصَةٌ:

أَظْهَرَ هَذَا المَطْلَبُ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ لَا يَنْبَغِي اخْتِزَالُهَا فِي مَبْحَثٍ مِيتَافِيزِيقِيّ؛ لأَنَّ المَرْتَبَةَ الوُجُودِيَّةُ لِلإِنْسَانِ تَفْتَحُ إِمْكَانَ الكَمَالِ، وَلَكِنَّهَا لَا تُغْنِي عَنْ السُّلُوكِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّق. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ تُمَثِّلُ نُقْطَةَ انْطِلَاقٍ، لَكِنَّهَا لَا تَنْتَهِي إِلَى تَعْظِيمِ الأَنَا، بَلْ إِلَى مَعْرِفَةِ حُدُودِهَا وَافْتِقَارِهَا. وَتَأْتِي التَّزْكِيَةُ وَالمُجَاهَدَةُ لِتُحَوّلَا هَذَا الوَعْيَ إِلَى مُمَارَسَةٍ، فِي حِينٍ تَنْقُلُ المَعْرِفَةُ الذَّوْقِيَّةُ الإِنْسَانَ مِنَ التَّصَوُّرِ إِلَى التَّحَقُّقِ. وَبِذَلِكَ يَبْرُزُ مَعْنَى بِنَاءِ الذَّاتِ بَوْصْفِهِ حَرَكَةً مُزْدَوَجَةً: تَحْرِيرًا لِلذَّاتِ مِنْ هَيْمَنَةِ الْأَنَا وَالهَوَى مِنْ جِهَةٍ، وَتَحْقِيقًا لِقَابِلِيَّاتِهَا الرُّوحِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الكَمَالَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي يُمْكِنُ فَهْمُهُ فِي ثَلَاثِيَّةٍ مُتَرَابِطَةٍ: الاسْتِعْدَادُ ← السُّلُوكُ ← التَّحَقُّقُ.

وَ هَذِهِ النَّتِيجَةُ تُمَهِّدُ لِلمَطْلَبِ الثَّالِثِ، الَّذِي يَنْتَقِلُ إِلَى الحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ بَوْصْفِهَا النَّمُوذَجَ الأَعْلَى لِتَحَقُّقِ الكَمَالِ الْإِنْسَانِي عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ.

المَطْلَبُ الثَّالِثُ: الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ وَالنَّمُوذَجُ الأَعْلَى لِتَحَقُّقِ الكَمَالِ الإِنْسَانِي عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي:

**المرتبة المحمدية:**

لَا يَكْتَمِلُ فَهْمُ مَفْهُومِ «الْكَوْنِ الْجَامِعِ» عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ مِنْ غَيْرِ رَبْطِهِ بِالْمَرْتَبَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ، فِي أَعْلَى صُوَرِ تَحَقُّقِهِ، يَجِدُ نَمُوذَجَهُ الْأَتَمَّ فِي الْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ. فَإِذَا كَانَ آدَمُ يُمَثِّلُ فُصُوصِ الْحِكَمِ ظُهُورَ الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَامِعَةِ1.(ابن عربي،1946،ص265). فَإِنَّ الْبِنَاءَ فِي الصُّوفِيَّ الْأَكْبَرِيَّ يَرْتَقِي بِهَذِهِ الْجَامِعِيَّةِ إِلَى مَرْتَبَةٍ أَكْمَلَ فِي النَّمُوذَجِ الْمُحَمَّدِي؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم يُمَثِّلُ، فِي الرُّؤْيَةِ الْأَكْبَرِيَّةِ، تَمَامَ التَّحَقُّقِ بِالْمَرْتَبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَامِعَةِ. وَهُنَا يَنْبَغِي التَّمْيِيزُ بَيْنَ الشَّخْصِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ لِلنَّبِي، وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِوَصْفِهَا مَفْهُومًا مِيتَافِيزِيقِيًّا وَصُوفِيًّا فِي فِكْرِ ابْنِ عَرَبِيّ. فَالْحَقِيقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى مَرْتَبَةِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي الْأَتَمّ، وَعَلَى الْجَامِعِيَّةِ الَّتِي تَتَحَقَّقُ فِيهَا دَلَالَاتُ الْأَسْمَاءِ وَالْمَرَاتِبِ عَلَى نَحْوٍ أَكْمَلَ2.(ابن عربي،1946،ص266).

وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَغْدُو الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ لَا مُجَرَّدَ «نُسْخَةٍ مُصَغَّرَةٍ» مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ مَرْكَزًا تَنْتَظِمُ فِيهِ دَلَالَاتُ الْوُجُودِ. وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ الْحَقِيقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ أَعْلَى صُوَرِ هَذَا الْجَمْعِ، لَا بِمَعْنَى الْخُرُوجِ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ، بَلْ بِمَعْنَى كَمَالِهَا وَتَمَامِ الْمَعْرِفَةِ بِهَا. وَيَكْشِفُ هَذَا الْبُعْدُ عَنْ أَنَّ مَفْهُومَ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ مَفْهُومِ النُّبُوَّةِ وَالْوِلَايَةِ وَالْكَمَالِ الرُّوحِي، بَلْ يُمَثِّلُ إِطَارًا تَلْتَقِي فِيهِ هَذِهِ الْمَعَانِي جَمِيعًا. وإِذَا كَانَ ابْنُ عَرَبِيّ قَدْ أَسَّسَ لِمَرْتَبَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِ مَفَاهِيمِ الكَوْنِ الجَامِعِ وَالخِلَافَةِ وَالصُّورَةِ وَالاسْتِعْدَادِ، فَإِنَّ هَذِهِ المَرْتَبَةَ تَبْلُغُ أَعْلَى دَرَجَاتِ تَحَقُّقِهَا فِي النَّمُوذَجِ المُحَمَّدِي؛ إِذْ يَتَحَوَّلُ الكَمَالُ مِنْ إِمْكَانٍ مَبْثُوثٍ فِي حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ إِلَى مَرْتَبَةٍ تَتَجَسَّدُ فِي أَكْمَلِ صُوَرِهَا. وَمِنْ هُنَا تَكْتَسِبُ الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ أَهَمِّيَّةً مَرْكَزِيَّةً فِي بِنَاءِ نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ، فِي التَّصَوُّرِ الْأَكْبَرِيّ، النَّمُوذَجَ الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ دَلَالَاتُ الكَمَالِ وَالجَمْعِيَّةِ وَالوِلَايَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالخِلَافَةِ35. (ابن عربي،1946،ص266).

**الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ وَمَعْنَى الجَمْعِيَّةِ:**

يَتَّخِذُ النَّمُوذَجُ المُحَمَّدِيُّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي دَلَالَةً تَتَجَاوَزُ البُعْدَ التَّارِيخِيَّ إِلَى بُعْدٍ رُوحِي وَمَعْرِفِي وَوُجُودِي. فَالْحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ تُمَثِّلُ مَرْتَبَةَ الجَمْعِيَّةِ فِي أَعْلَى صُوَرِهَا؛ أَي مَرْتَبَةً تَتَّسِعُ لِمَعَانِي النُّبُوَّةِ وَالوِلَايَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّق. وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ الكَمَالَ المُحَمَّدِيَّ لَا يُفْهَمُ بَوْصْفِهِ مَجْمُوعَ فَضَائِلَ مُتَفَرِّقَةٍ، بَلْ بَوْصْفِهِ وَحْدَةً جَامِعَةً تَتَكَامَلُ فِيهَا أَبْعَادُ الإِنْسَانِ. وَهُنَا يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَ الكَمَالِ الجُزْئِي وَالكَمَالِ الجَامِع ؛ فَقَدْ يَتَحَقَّقُ الإِنْسَانُ بِصِفَةٍ أَوْ مَقَامٍ، وَلَكِنَّ الجَمْعِيَّةَ تَعْنِي تَكَامُلُ الْمَرَاتِبِ وَانْتِظَامَهَا فِي وَحْدَةٍ أَعْلَى1.(ابن عربي،1946،ص267).

**الكَلِمَةُ المُحَمَّدِيَّةُ وَاكْتِمَالُ الحِكَمِ:**

يَخْتِمُ ابْنُ عَرَبِي فُصُوص الحِكَمِ بِالفَصّ المُحَمَّدِي، وَهَذَا التَّرْتِيبُ لَهُ دَلَالَةٌ مَهمَّةٌ؛ لِأَنَّ الكَلِمَةَ المُحَمَّدِيَّةَ تَأْتِي فِي نِهَايَةِ البِنَاءِ بَوْصْفِهَا مَوْضِعًا لِجَمْعِ مَا تَفَرَّقَ مِنَ الحِكَمِ فِي سَائِرِ الكَلِمَاتِ2.(ابن عربي،1946،ص267). وَيَتَّصِلُ هَذَا بِمَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ اتِّصَالًا مُبَاشَرًا؛ لِأَنَّ الكَمَالَ لَا يَقُومُ عَلَى الانْفِرَادِ بِصِفَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ عَلَى الجَمْعِ وَالتَّوَازُنِ وَالتَّحَقُّقِ الشَّامِل. وَمِنْ ثُمَّ، فَإِنَّ النَّمُوذَجَ المُحَمَّدِيَّ يُمَثِّلُ ذُرْوَةَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَهُ الإِنْسَانُ مِنْ جَمْعِيَّةٍ بَيْنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَالمَعْرِفَةِ وَالخُلُقِ، وَالبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ.

**الوِلَايَةُ وَالامْتِدَادُ الرُّوحِيُّ لِلنَّمُوذَجِ المُحَمَّدِي:**

لَا يَنْحَصِرُ الكَمَالُ المُحَمَّدِيُّ فِي مَعْنَى تَارِيخِيّ مُغْلَقٍ، بَلْ يَرْتَبِطُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي بِمَفْهُومِ الوِلَايَةِ؛ إِذْ تُمْثِّلُ الوِلَايَةُ بُعْدًا مِنْ أَبْعَادِ الامْتِدَادِ الرُّوحِي لِلنَّمُوذَجِ النَّبَوِيّ. وَهُنَا يَتَحَوَّلُ الكَمَالُ مِنْ صُورَةٍ مُنْفَرِدَةٍ إِلَى مِعْيَارٍ لِلتَّحَقُّقِ؛ فَالكُمَّلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ لَا يَبْتَدِعُونَ كَمَالًا مُسْتَقِلًا، بَلْ يَتَحَقَّقُونَ بِمَعَانِي الوِرَاثَةِ وَالاتِّبَاعِ وَالتَّخَلُّقِ عَلَى دَرَجَاتٍ1.(ابن عربي،1980،ص320). وَهَذَا يَكْشِفُ عَنْ بُعْدٍ مَهِمّ فِي فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ: فَالإِنْسَانُ لَا يَبْنِي نَفْسَهُ فِي فَرَاغٍ، بَلْ فِي ضَوْءِ نَمُوذَجٍ قِيَمِي وَرُوحِيَ أَعْلَى..

**الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ وَمِعْيَارُ الكَمَالِ:**

تُثِيرُ نَظَرِيَّةُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ سُؤَالًا مَهِمًّا: بِأَيّ مِعْيَارٍ يُقَاسُ الكَمَالُ؟ وَيُجِيبُ التَّصَوُّرُ الأَكْبَرِيُّ ضِمْنًا بِأَنَّ الكَمَالَ لَا يُقَاسُ بِالاسْتِقْلَالِ عَنِ النَّمُوذَجِ النَّبَوِيّ، بَلْ بِدَرَجَةِ التَّحَقُّقِ بِمَعَانِيهِ2.(ابن عربي،1980،ص321). وَهُنَا تَظْهَرُ وَظِيفَةُ الحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ بَوْصْفِهَا مِعْيَارًا لِلتَّوَازُن؛ فَالكَمَالُ لَا يَعْنِي الغُلُو فِي بُعْدٍ عَلَى حِسَابِ بُعْدٍ آخَرَ، بَلْ جَمْعَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَالرُّوحِ وَالأَخْلَاق، وَالبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ.

**الكَمَالُ المُحَمَّدِيُّ وَبِنَاءُ الْإِنْسَانِ:**

مِنْ مَنْظُورٍ هَذَا البَحْثِ، تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ النَّمُوذَجِ المُحَمَّدِي فِي أَنَّهُ يَنْقُلُ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنَ التَّجْرِيدِ إِلَى المِعْيَارِ الْعَمَلِيّ. فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ قَابِلًا لِلكَمَالِ مِنْ حَيْثُ الجَمْعِيَّةُ، فَإِنَّ السُّؤَالَ عَنْ مَضْمُونِ هَذَا الكَمَالِ يَجِدُ إِجَابَتَهُ فِي النَّمُوذَجِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالعُبُودِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالعَدْلِ وَالتَّوَازُن. وَبِهَذَا يُمْكِنُ صِيَاغَةُ مَسَارٍ بِنَاءِ الإِنْسَانِ عَلَى النَّحْوِ الآتي: اسْتِعْدَادٌ إِنْسَانِيّ ← سُلُوكٌ وَتَزْكِيَةٌ ← مَعْرِفَةٌ وَتَحَقُّقٌ ← اقْتِدَاءٌ بِالنُّمُوذَجِ المُحَمَّدِيّ ← كَمَالٌ أَخْلَاقِيٌّ وَرُوحِيٌّ. وَهَذَا المَسَارُ يُظْهِرُ أَنَّ الكَمَالَ لَيْسَ انْفِصَالًا عَنِ الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ تَحَقُّقًا أَعْمَقَ بِهَا. ويمكن القول أنه لَا يَكْتَمِلُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِذَا عُزِلَ عَنِ المَسْؤُولِيَّة؛ فَمَنْ يَدَّعِي مَرْتَبَةً أَعْلَى مِنَ المَعْرِفَةِ دُونَ أَنْ يَنْعَكِسَ ذَلِكَ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَعِلَاقَتِهِ بِالعَالَمِ، يَكُونُ قَدْ فَصَلَ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ. وَمِنْ هُنَا تَتَّصِلُ الجَمْعِيَّةُ بِالمَسْؤُولِيَّةِ، وَالوِلَايَةُ بِالأَخْلَاقِ، وَالمَعْرِفَةُ بِالخِدْمَةِ. وَهَذَا يَسْمَحُ بِقِرَاءَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا بَوْصْفِهِ كَائِنًا مُتَعَالِيًا عَنِ العَالَمِ، بَلْ بَوْصْفِهِ أَكْثَرَ حُضُورًا فِيهِ وَمَسْؤُولِيَّةً عَنْهُ..

وَيَتَّضِحُ مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّحْلِيلِ أَنَّ الحَقِيقَةَ المُحَمَّدِيَّةَ لَا تُمَثِّلُ عُنْصُرًا عَقَدِيًا أَوْ صُوفِيًّا مَعْزُولًا، بَلْ تُؤَدّي وَظِيفَةً مَرْكَزِيَّةً فِي بِنَاءِ نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ. فَهِيَ تَمْنَحُ الكَمَالَ مِعْيَارَهُ، وَتَمْنَحُ السُّلُوكَ وِجْهَتَهُ، وَتَمْنَحُ الوِلَايَةَ نَمُوذَجَهَا، وَتَمْنَحُ بِنَاءَ الذَّاتِ أُفُقَهُ القِيَمِيَّ. وَبِهَذَا يَتَجَاوَزُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ حُدُودَ الوَصْفِ المِيتَافِيزِيقِيّ، لِيُصْبِحَ مَشْرُوعًا فِي صِيَاغَةِ الإِنْسَانِ وَتَوْجِيهِ إِرَادَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَمَعْرِفَتِهِ.

**الخُلاصَةُ:**

أَظْهَرَ هَذَا المَطْلَبُ أَنَّ الحَقِيقَةَ المُحَمَّدِيَّةَ تُمَثِّلُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي النَّمُوذَجَ الأَعْلَى الَّذِي تَنْتَظِمُ فِيهِ مَعَانِي الجَمْعِيَّةِ وَالوِلَايَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّق. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الكَمَالَ المُحَمَّدِيَّ لَا يُفْهَمُ بَوْصْفِهِ مَجْمُوعَ صِفَاتٍ مُنْفَصِلَةٍ، بَلْ بَوْصْفِهِ وَحْدَةً جَامِعَةً تَتَكَامَلُ فِيهَا أَبْعَادُ الْإِنْسَانِ المَعْرِفِيَّةُ وَالأَخْلَاقِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ. وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ تَتَحَرَّكُ فِي ثَلَاثِ دَوَائِرَ مُتَكَامِلَةٍ: مَرْتَبَةُ الإِنْسَانِ ← سُلُوكُ الإِنْسَانِ ← نَمُوذَجُ الكَمَالِ المُحَمَّدِي. وَهَذِهِ الثَّلَاثِيَّةُ تَكْشِفُ عَنْ أَنَّ الكَمَالَ لَا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ امْتِلَاكِ القَابِلِيَّةِ، بَلْ بِالسُّلُوكِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالتَّحَقُّقِ وَالاقْتِدَاءِ بِنَمُوذَجٍ جَامِعٍ.

**خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الثَّانِي:**

أَظْهَرَ المَبْحَثُ الثَّانِي أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي تَقُومُ عَلَى تَكَامُلٍ بَيْنَ الأُنْطُولُوجِيَا وَالمَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ وَالأَخْلَاقِ. فَمِنْ جِهَةٍ، يَحْتَلُّ الإِنْسَانُ مَرْتَبَةً خَاصَّةً بِوَصْفِهِ كَوْنًا جَامِعًا، وَتَرْتَبِطُ هَذِهِ الجَمْعِيَّةُ بِالخِلَافَةِ وَالصُّورَةِ وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ. وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، لَا تَعْنِي هَذِهِ المَرْتَبَةُ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ قَدْ تَحَقَّقَ بِالكَمَالِ فِعْلًا.

وَمِنْ هُنَا يَبْرُزُ دَوْرُ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ وَتَصْفِيَةِ القَلْبِ وَالمَعْرِفَةِ الذَّوْقِيَّةِ وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ فِي نَقْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَرْتَبَةِ الاسْتِعْدَادِ إِلَى مَرْتَبَةِ التَّحَقُّقِ. ثُمَّ تَأْتِي الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ لِتُمَثِّلَ المِعْيَارَ الأَعْلَى لِلكَمَالِ،

وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الكَمَالَ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي لَا يَتَحَقَّقُ بِالانْفِصَالِ عَنِ الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ بِالتَّحَقُّقِ الْأَتَمِّ بِمُقْتَضَيَاتِهَا. وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ، يُمْكِنُ تَلْخِيصُ بِنَاءِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَهُ فِي المَسَارِ الآتي: الجَمْعِيَّةُ ← الاسْتِعْدَادُ ← التَّزْكِيَةُ ← المَعْرِفَةُ ← التَّحَقُّقُ ← الوِرَاثَةُ المُحَمَّدِيَّةُ ← الكَمَالُ. وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ تُمَهِّدُ لِلمَبْحَثِ الثَّالِثِ، الَّذِي سَيَنْتَقِلُ إِلَى عَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ؛ لِبَيَانِ كَيْفَ أَعَادَ صِيَاغَةَ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، وَكَيْفَ تَحَوَّلَ المَفْهُومُ عِنْدَهُ إِلَى بِنَاءٍ أَكْثَرَ صَرَاحَةً وَتَنْظِيمًا فِي مَرَاتِبِ الكَمَالِ وَالتَّحَقُّقِ.

**الإِنْسَانُ الكَامِلُ عِنْدَ عَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِي: تَحَوُّلُ الذَّاتِ وَمَرَاتِبُ الكَمَال:-:**

يُمَثِّلُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ أَحَدَ أَبْرَزِ المَفَاهِيمِ الَّتِي بَلَغَتْ مَرْحَلَةً مِنَ النُّضْجِ وَالتَّنْظِيمِ فِي فِكْرِ عَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ (767-832هـ)، وَلَا سِيَّمَا فِي كِتَابِهِ الإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الأَوَاخِرِ وَالأَوَائِلِ. وَإِذَا كَانَ مُحْيِي الدِّينِ ابْنُ عَرَبِي قَدْ وَضَعَ الأُسُسَ المِيتَافِيزِيقِيَّةَ وَالصُّوفِيَّةَ لِمَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، فَإِنَّ الجِيلِيَّ قَدْ دَفَعَ بِهِ إِلَى مَرْحَلَةٍ أَكْثَرَ تَفْصِيلًا، وَجَعَلَهُ مِحْوَرًا لِفَهْمِ طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ وَمَرَاتِبِ تَحَقُّقِهِ وَعَلَاقَتِهِ بِالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَبِالكَوْنِ. وَلَعَلَّ مِنْ أَدَقِّ المَدَاخِلِ إِلَى نَظَرِيَّةِ الجِيلِيّ فِي الإِنْسَانِ الكَامِلِ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الكَمَالِ بِالقُوَّةِ وَالكَمَالِ بِالفِعْلِ. فَالإِنْسَانُ، مِنْ حَيْثُ أَصْلُ نَشْأَتِهِ، يَحْمِلُ اسْتِعْدَادًا لِلتَّحَقُّقِ بِمَرَاتِبَ عَالِيَةٍ مِنَ المَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ وَالجَمْعِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الاسْتِعْدَادَ لَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ قَدْ بَلَغَ مَرْتَبَةَ الكَمَالِ فِعْلًا1.(الجيلي،1997،ص234). وَهُنَا تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الإِمْكَانِ وَالتَّحَقُّقِ؛ فَمَا يَكُونُ فِي الإِنْسَانِ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعْدَادِ وَالإِمْكَانِ يُوصَفُ بِأَنَّهُ كَمَالٌ بِالقُوَّةِ، أَمَّا مَا يَتَحَقَّقُ مِنْهُ فِي الوَعْيِ وَالمَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ وَالتَّجَلِّي فَهُوَ كَمَالٌ بِالْفِعْلِ. وَيُمَثِّلُ عَبْدُ الكَرِيمِ الجِيلِيُّ مَرْحَلَةً مُتَقَدِّمَةً فِي تَطَوُّرِ نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي التَّصَوُّفِ الإِسْلَامِي؛ إِذْ لَمْ يَكْتَفِ بِتَلَقِّي المَبَادِئِ الْكُبْرَى تَشَكَّلَتْ فِي الْأُفُقِ الْأَكْبَرِي، بَلْ أَعَادَ تَرْتِيبَهَا وَتَنْظِيمَهَا فِي بِنَاءٍ أَكْثَرَ صَرَاحَةً وَتَرْكِيزًا حَوْلَ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ وَمَرَاتِبِ تَحَقُّقِهِ2.(عفيفي،1963،ص231).

وَتَتَّضِحُ مَرْكَزِيَّةُ المَفْهُومِ مِنْ عُنْوَانِ كِتَابِهِ «الْإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الأَوَاخِرِ وَالأَوَائِلِ»، وَمِنْ بِنْيَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي تَتَدَرَّجُ فِي مَبَاحِثِ الذَّاتِ وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالأُلُوهِيَّةِ وَالأَحَدِيَّةِ وَالوَاحِدِيَّةِ وَالإِرَادَةِ وَالعِلْمِ وَالجَمَالِ وَالجَلَالِ وَالكَمَالِ، ثُمَّ النَّفْسِ وَالقَلْبِ وَالعَقْلِ، قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ بَابَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ1.(الجيلي،1997،ص92). وَيَدُلُّ هَذَا التَّرْتِيبُ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ عِنْدَ الجِيلِيّ لَا يُفْهَمُ بِوَصْفِهِ مَفْهُومًا مُنْفَصِلًا، بَلْ بِوَصْفِهِ خُلَاصَةً لِبِنَاءٍ وُجُودِي وَمَعْرِفِي وَرُوحِيّ مُتَكَامِلٍ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ عِنْدَ الجِيلِيّ لَا يُفْهَمُ مِنْ خِلَالِ السُّؤَالِ: مَاذَا يَمْلِكُ الإِنْسَانُ مِنْ إِمْكَانَاتٍ فَحَسْبُ، بَلْ مِنْ خِلَالِ سُؤَالٍ أَعْمَقَ: إِلَى أَي مَدًى تَحَقَّقَ الإِنْسَانُ بِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنْ إِمْكَانَاتِ الكَمَالِ؟ وَمِنْ هُنَا، يَسْعَى هَذَا المَبْحَثُ إِلَى بَيَانِ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ الجِيلِيّ مِنْ مَرْتَبَةٍ وُجُودِيَّةٍ إِلَى مَسَارٍ لِلتَّحَقُّقِ، وَكَيْفَ يَرْتَبِطُ هَذَا المَسَارُ بِمَرَاتِبِ النَّفْسِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّجَلِّي وَالاسْتِعْدَادِ وَالانتِقَالِ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ. وَعَلَيْهِ، تَتَحَدَّدُ إِشْكَالِيَّةُ هَذَا الْمَبْحَثِ فِي السُّؤَالِ الْآتِي: كَيْفَ بَنَى عَبْدُ الكَرِيمِ الجِيلِيُّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ، وَمَا الدَّلَالَةُ الوُجُودِيَّةُ وَالمَعْرِفِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ لِهَذَا الانْتِقَالِ؟

**المَطْلَبُ الأَوَّلُ:**

البِنَاءُ المَعْرِفِيُّ وَالوُجُودِيُّ لِنَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ الجِيلِيّ:-:

أَوَّلاً: مَرْكَزِيَّةُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي بِنَاءِ الجِيلِيّ:-:

يُصَرِّحُ الجِيلِيُّ فِي البَابِ المُخَصَّصِ لِلإِنْسَانِ الكَامِلِ بِأَهَمِّيَّةِ هَذَا المَوْضُوعِ، وَيُقَدِّمُهُ بِوَصْفِهِ مَحْوَرًا تَجْتَمِعُ فِيهِ جُمْلَةُ المَبَاحِثِ السَّابِقَةِ2.(الجيلي،1997،ص94). وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الجِيلِيَّ لا يَبْدَأُ مِنَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مُبَاشَرَةً، بَلْ يَبْنِي لَهُ مَرْحَلَةً بَعْدَ مَرْحَلَةٍ؛ إِذْ يَبْحَثُ أَوَّلًا فِي حَقَائِقِ الوُجُودِ وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى بِنْيَةِ الإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِ النَّفْسِ وَالقَلْبِ وَالعَقْلِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ يَظْهَرُ عِنْدَهُ بَوْصْفِهِ نُقْطَةَ التِقَاءِ بَيْنَ مَا هُوَ وُجُودِيٌّ وَمَا هُوَ إِنْسَانِيٌّ وَمَا هُوَ رُوحِيٌّ.

**ثَانِيًا: الإِنْسَانُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ:**

يُعَدُّ تَمْيِيزُ الجِيلِيّ بَيْنَ مَا يَكُونُ فِي الإِنْسَانِ بِالقُوَّةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ بِالْفِعْلِ مِنْ أَهَمِّ المَفَاتِيحِ الفَلْسَفِيَّةِ لِفَهْمِ نَظَرِيَّتِهِ فِي الكَمَالِ1.(عفيفي،1963،ص234). فَالْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ أَصْلُ القَابِلِيَّةِ يَحْمِلُ إِمْكَانًا لِلْجَمْعِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّرَقِّي، وَلَكِنَّ هَذَا الإِمْكَانَ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ لِتَحَقُّقِ الكَمَالِ. وَهُنَا تَتَّضِحُ أَصَالَةُ السُّؤَالِ: لَيْسَ المُهِمُّ أَنْ يَكُونَ الكَمَالُ مُمْكِنًا فِي الإِنْسَانِ، بَلْ أَنْ يَتَحَوَّلَ هَذَا الإِمْكَانُ إِلَى فِعْلٍ مُتَحَقِّقٍ. ويَقْتَضِي فَهْمُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ الجِيلِيّ تَحْدِيدَ المَقْصُودِ بِمَفْهُومَي القُوَّة وَالفِعْلِ. فَالقُوَّةُ هُنَا لَا تُرَادُ بِمَعْنَى القُوَّةِ الجِسْمِيَّةِ، وَلَا بِمَعْنَى السُّلْطَةِ وَالقُدْرَةِ عَلَى الغَيْرِ، بَلْ تَعْنِي الإِمْكَانَ وَالاسْتِعْدَادَ الكَامِنَ فِي الشَّيْءِ قَبْلَ تَحَقُّقِهِ. أَمَّا الْفِعْلُ فَيَعْنِي خُرُوجَ هَذَا الاسْتِعْدَادِ مِنَ الْإِمْكَانِ إِلَى التَّحَقُّقِ؛ أَيْ أَنْ يَصِيرَ مَا كَانَ قَابِلًا لِلْوُجُودِ وَاقِعًا مُتَحَقِّقًا2.(الحكيم،1981،ص165) .وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الإِنْسَانَ فِي أَصْلِ نَشْأَتِهِ يَحْمِلُ إِمْكَانَ الكَمَالِ، غَيْرَ أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِلُ بِهَذَا الإِمْكَانِ إِلَى دَرَجَةِ التَّحَقُّقِ. وَيَظْهَرُ هَذَا التَّمْيِيزُ بِوُضُوحٍ شَدِيدٍ فِي كَلَامِ الجيلي عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنْ أَفْرَادِ النَّوْعِ الإِنْسَانِي، إِذْ يُقَرِّرُ أَنَّ بَعْضَهُمْ تَكُونُ حَقَائِقُ الكَمَالِ فِيهِ بِالقُوَّةِ، وَبَعْضَهُمْ تَكُونُ فِيهِ بِالفِعْلِ3.(الجيلي،1997،ص97).

وَيَجْعَلُ الفِئَةَ الثَّانِيَةَ فِي مَرْتَبَةِ الكُمَّلِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ4.(الجيلي،1997،ص123). وَتَكْشِفُ هَذِهِ العِبَارَةُ عَنْ مَبْدَأٍ أَسَاسِيٍّ فِي فكر الجيليّ، وَهُوَ أَنَّ الاشْتِرَاكَ فِي الإِنْسَانِيَّةِ لَا يَعْنِي التَّسَاوِي فِي مَرْتَبَةِ التَّحَقُّق ولَا يَكْتَمِلُ مَعْنَى القُوَّةِ وَالفِعْلِ عِنْدَ الجِيلِيّ إِلَّا إِذَا رُبِطَ بِمَفهوم الجَمْعِيَّةِ. فَالإِنْسَانُ الكَامِلُ لَيْسَ كَامِلًا لِأَنَّهُ حَقَّقَ صِفَةً وَاحِدَةً فَقَطْ؛ فَمَنْ تَحَقَّقَ بِالعِلْمِ دُونَ الرَّحْمَةِ لَا يُمَثِّلُ الجَمْعِيَّةَ، وَمَنْ تَحَقَّقَ بِالقُوَّةِ دُونَ الحِكْمَةِ لَا يُمَثِّلُ الكَمَالَ إِنَّمَا الكَمَالُ يَكْمُنُ فِي الجَمْعِ المُتَوَازِنِ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالمَرَاتِبِ1.(الجيلي،1997،ص137). وَهُنَا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ مَفْهُومِ الجَمْعِ فِي تَفْسِيرِ الْفِعْلِ؛ فَالكَمَالُ بِالْفِعْلِ لَا يَعْنِي تَحَقُّقَ طَاقَةٍ جُزْئِيَّةٍ مِنْ طَاقَاتِ الْإِنْسَانِ، بَلْ يَعْنِي تَنَاغُمَ قُوَاهُ وَتَوَازُنَهَا فِي نِظَامٍ شَامِلٍ. وَبِهَذَا يُصْبِحُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ إِنْسَانًا جَامِعًا، لَا إِنْسَانًا ذَا بُعْدٍ وَاحِدٍ. ويُمْكِنُ، فِي ضَوْءِ مَفْهُومِ القُوَّةِ وَالفِعْلِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ ثَلَاثِ مَرَاتِبَ رَئِيسَةٍ لِلْوُجُودِ الْإِنْسَانِيّ:-.

**المَرْتَبَةُ الأُولَى:** الإِنْسَانُ الطَّبِيعِيُّ: وَهُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي تَحْكُمُهُ حَاجَاتُهُ وَمَيْلُهُ إِلَى العَالَمِ الحِسّيّ، وَلَا يَزَالُ إِمْكَانُ الكَمَالِ فِيهِ فِي دَرَجَةِ القُوَّة.

**المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ:** الإِنْسَانُ السَّالِكُ: وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ فِي إِخْرَاجِ إِمْكَانَاتِهِ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ مِنْ خِلَالِ المَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالمُجَاهَدَةِ .

**المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ:** الإِنْسَانُ الْمُتَحَقِّقُ أَوِ الكَامِلُ: وَهُوَ الَّذِي بَلَغَ دَرَجَةً مِنَ الجَمْعِيَّةِ يَصِيرُ مَعَهَا مَا كَانَ فِيهِ اسْتِعْدَادًا وَإِمْكَانًا حَاضِرًا فِي المَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ وَالحَالِ.

وَهَذَا التَّرَاتُبُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ عَلَى أَنَّهُ تَصْنِيفٌ جَامِدٌ، بَلْ هُوَ مَسَارٌ دِينَامِيٌّ يَكْشِفُ عَنْ حَرَكَةِ الإِنْسَانِ نَحْوَ كَمَالِهِ.

فَالنَّاسُ يَشْتَرِكُونَ فِي الأَصْلِ الإِنْسَانِي، وَلَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي مِقْدَارِ تَحَقُّقِهِمْ بِمَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ الإِنْسَانِيَّةُ مِنْ مَعْرِفَةٍ وَصَفَاءٍ وَتَزْكِيَةٍ وَحُضُورٍ. وَمِنْ هُنَا تَصِيرُ مَسَافَةُ الكَمَالِ مَسَافَةً بَيْنَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَهُ الإِنْسَانُ وَمَا أَصْبَحَ عَلَيْهِ فِعْلًا. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الجِيلِيَّ يُقَدِّمُ أَسَاسًا نَصِيًّا مُهِمًّا لِقِرَاءَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي إِطَارِ فَلْسَفَةِ تَحَوُّلِ الذات. ويَكْشِفُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ عَنْ بُعْدٍ فَلْسَفِي عَمِيقٍ فِي تَصَوُّرِ الجِيلِيّ لِلإِنْسَانِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُفْهَمُ عِنْدَهُ بِوَصْفِهِ حَقِيقَةً مُكْتَمِلَةً مُنْذُ البِدَايَةِ، بَلْ بِوَصْفِهِ مَوْجُودًا يَحْمِلُ إِمْكَانَاتٍ لَمْ تَتَحَقَّقْ كُلُّهَا بَعْدُ .

وَبِهَذَا تَنْتَقِلُ النَّظْرَةُ إِلَى الإِنْسَانِ مِنَ السُّكُونِ إِلَى الصَّيْرُورَةِ؛ أَيْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مَاهِيَّةٌ ثَابِتَةٌ إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعُ تَحَقُّقٍ. فَالإِنْسَانُ لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَمْتَلِكَ القُوَّةَ لِيَكُونَ كَامِلًا، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ مِنْ حَالَةِ الإِمْكَانِ إِلَى حَالَةِ الفِعْلِ. وَهُنَا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ الزَّمَنِ الرُّوحِي فِي تَشَكُّلِ الإِنْسَانِ؛ فَالكَمَالُ لَا يَتَحَقَّقُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ يَتَكَوَّنُ عَبْرَ التَّرَقِّي وَالمُجَاهَدَةِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَبِهَذَا يَكُونُ الإِنْسَانُ عِنْدَ الجِيلِيّ مَوْجُودًا يَصِيرُ وَلَا يَكْتَفِي بِأَنْ يَكُونَ. وتَكْمُنُ القِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِمَفْهُومِ القُوَّةِ وَالفِعْلِ فِي أَنَّهُ يَجْعَلُ الإِنْسَانَ مَشْرُوعًا مَفْتُوحًا، لَا مَاهِيَّةً مُكْتَمِلَةً وَمُنْجَزَةً مِنَ البِدَايَةِ. فَالإِنْسَانُ يَمْلِكُ إِمْكَانَاتٍ أَكْبَرَ مِمَّا يُظْهِرُهُ فِي حَيَاتِهِ الفِعْلِيَّةِ، وَالتَّحَدِي الحَقِيقِيُّ أَمَامَهُ هُوَ أَنْ يَحُولَ هَذِهِ الإِمْكَانَاتِ إِلَى حَقِيقَةٍ مُتَحَقِّقَةٍ، حيث تعيد ثُنَائِيَّةِ القُوَّةِ وَالفِعْلِ صِيَاغَةَ

السُّؤَالِ عَنِ الْإِنْسَانِ. فَبَدَلًا مِنَ السُّؤَالِ: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ؟ يُصْبِحُ السُّؤَالُ: مَاذَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَصِيرَ؟ وَهَذَا التَّحَوُّلُ مِنَ المَاهِيَّةِ إِلَى الإِمْكَانِ يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ مَا يُمْكِنُ اسْتِخْلَاصُهُ فَلْسَفِيًّا مِنْ مَشْرُوعِ الجِيلِيّ. فَالإِنسانُ لَا تُعَرِّفُهُ بَدَايَتُهُ فَقَطْ، بَلْ تُعَرِّفُهُ أَيْضًا غَايَتُهُ وَمَسَارُ تَحَقُّقِهِ وَبِهَذَا يُصْبِحُ الْإِنْسَانُ مَشْرُوعًا مَفْتُوحًا عَلَى التَّكَوُّنِ..

**ثَالِثًا: الإِنْسَانُ الكَامِلُ وَالحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ:**

يَرْبِطُ الجِيلِيُّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ بِالحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ، وَيَجْعَلُ النَّمُوذَجَ المُحَمَّدِيَّ أَعْلَى صُوَرِ تَحَقُّقِ الكَمَالِ1.(الجيلي،1997،ص245). وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا يَتَّخِذُ صُورَةً مُجَرَّدَةً، بَلْ يَرْتَبِطُ بِنَمُوذَجٍ يَجْمَعُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالعُبُودِيَّةِ وَالوِلَايَةِ وَالجَمْعِيَّةِ. ففي منظور الجيلي مُحَمَّدٌ عليه السلام نَمُوذَجُ الكَمَالِ بِالْفِعْلِ، حيث يَصِلُ الجِيلِيُّ بِمَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِهِ فِي شَخْصِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عليه السلام. وَيُصَرِّحُ بِأَنَّهُ حِينَ يُطْلِقُ تَعْبِيرَ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ بِهِ فِي المَرْتَبَةِ العُلْيَا، مُحَمَّدًا؛ لأَنَّهُ النَّمُوذَجُ الأَتَمُّ لِلكَمَالِ الإِنْسَانِي1.(الجيلي،1997،ص246).

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الجِيلِيَّ يَنْفِي الكَمَالَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ؛ بَلْ يُقِرُّ بِوُجُودِ الكُمَّل وَتَفَاوُتِهِمْ فِي مَرَاتِبِ الكَمَالِ غَيْرَ أَنَّهُ يَجْعَلُ النَّمُوذَجَ المُحَمَّدِيَّ أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ. وَبِهَذَا المَعْنَى يَغْدُو النَّبِيُّ عليه السلام صُورَةَ الكَمَالِ المُتَحَقِّقِ بِالفِعْلِ. فَمَا يَكُونُ فِي غَيْرِهِ إِمْكَانًا أَوْ يَتَحَقَّقُ عَلَى دَرَجَاتٍ، بَلُغُ فِي النَّمُوذَجِ المُحَمَّدِي مَرْتَبَةَ التَّمَامِ2.(الجيلي،1997،ص247). وَمِنْ هُنَا تَأْخُذُ الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ مَكَانَةً مَرْكَزِيَّةً فِي نَظَرِيَّةِ الجِيلِيّ، إِذْ تُصْبِحُ مِعْيَارًا لِفَهْمِ مَعْنَى الكَمَال وَغَايَتِهِ.

حيث يَجْعَلُ الجِيلِيُّ النَّمُوذَجَ المُحَمَّدِيَّ ذُرْوَةَ التَّحَقُّقِ الإِنْسَانِي، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةَ مِفْتَاحًا أَسَاسِيًّا لِفَهْمِ مَعْنَى الفِعْلِ فِي نَظَرِيَّتِهِ. فَالحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّةُ تُمَثِّلُ، فِي التَّصَوُّرِ الجِيلِي، أَعْلَى دَرَجَاتِ الجَمْعِيَّةِ وَالكَمَالِ. وَهَذَا لَا يَعْنِي نَفْيَ الكَمَالِ عَنْ غَيْرِهِ، بَلْ يَعْنِي أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ إِنْسَانِي يُقَاسُ بِدَرَجَةِ قُرْبِهِ مِنَ النَّمُوذَجِ المُحَمَّدِي فِي المَعْرِفَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالْعُبُودِيَّةِ. وَبِهَذَا يَصِيرُ الانْتِقَالُ مِنَ القُوَّة إِلى الْفِعْلِ انْتِقَالًا نَحْوَ التَّحَقُّقِ بِالكَمَالِ المُحَمَّدِي عَلَى قَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ وَالمَرْتَبَةِ. وَيَتَّضِحُ أَنَّ الكَمَالَ هُنَا لَا يَعْنِي إِلْغَاءَ الفَرْدِيَّةِ، بَلْ تَحَقُّقَهَا فِي ضَوْءِ نَمُوذَجٍ أَعْلَى..

**رَابِعًا: النَّفْسُ وَمَرَاتِبُ التَّحَوُّلِ:**

يَحْتَلُ مَبْحَثُ النَّفْسِ مَوْقِعًا أَسَاسِيًّا فِي بِنَاءِ الجِيلِيّ؛ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي تَنْتَقِلُ فِيهِ الذَّاتُ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أُخْرَى. وَيَتَحَدَّثُ الجِيلِيُّ عَنِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ وَاللَّوَّامَةِ وَالمُطْمَئِنَّةِ، وَيَجْعَلُ هَذَا التَّدَرُّجَ جُزْءًا مِنْ بِنْيَةِ التَّحَقُّقِ1.(الجيلي،1997،ص207). وَمِنْ مَنْظُورِ البَحْثِ، فَإِنَّ هَذِهِ المَرَاتِبَ تُمَثِّلُ نموذجا لِتَحَوُّلِ الذَّاتِ؛ فَالنَّفْسُ لَا تَبْقَى فِي صُورَتِهَا الأُولَى، بَلْ تَتَغَيَّرُ بِالمُجَاهَدَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ. ولَا يَقُومُ بِنَاءُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ الجِيلِيّ عَلَى النَّفْسِ وَحْدَهَا؛ فَهُنَاكَ القَلْبُ وَالعَقْلُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَضْطَلِعُ بِوَظِيفَةٍ فِي بِنَاءِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ لَا يَعْنِي إِلْغَاءَ العَقْلِ لِصَالِحِ الوِجْدَانِ، وَلَا الْغَاءَ القَلْبِ لِصَالِحِ التَّجْرِيدِ، بَلْ تَكَامُلَ أَدَوَاتِ الْإِدْرَاكِ فِي الذَّاتِ. وَهَذَا التَّكَامُلُ يُظْهِرُ أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ لَيْسَ كَائِنًا أُحَادِيَّ البُعْدِ، بَلْ بِنْيَةٌ تَتَآلَفُ فِيهَا القُوَى وَالمَلَكَاتُ. وَلَا يَعْنِي الِانْتِقَالُ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ مُجَرَّدَ تَطَوُّرٍ كَمّي فِي شَخْصِيَّةِ الإِنْسَانِ، بَلْ يَعْنِي إِعَادَةَ تَشْكِيلِ الذَّاتِ. فَالإِنْسَانُ فِي بَدَايَةِ سَيْرِهِ يَكُونُ خَاضِعًا لِتَشَتُّتِ الرَّغَبَاتِ وَتَنَاقُضِ الدَّوَافِعِ، أَمَّا التَّحَقُّقُ فَيَعْمَلُ عَلَى تَوْحِيدِ قُوَاهُ وَتَوْجِيهِهَا نَحْوَ غَايَةٍ أَعْلَى وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الكَمَالَ لَا يَعْنِي زِيَادَةَ المَعْرِفَةِ فَحَسْبُ، بَلْ يَعْنِي أَنْ يُصْبِحَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ وَحْدَةً فِي ذَاتِهِ. فَلَا يَبْقَى العَقْلُ فِي اتِّجَاهٍ، وَالنَّفْسُ فِي اتِّجَاهٍ، وَالإِرَادَةُ فِي اتِّجَاهٍ آخَرَ، بَلْ تَنْتَظِمُ هَذِهِ القُوَى فِي بِنْيَةٍ مُتَوَازِنَةٍ. وَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ عِنْدَ الجِيلِي هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي تَجَاوَزَ التَّشَتُّتَ الدَّاخِلِيَّ إِلَى الوَحْدَةِ الرُّوحِيَّةِ.

**خامسا: الكَمَالُ وَوَحْدَةُ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ:**

يَنْطَوِي التَّصَوُّرُ الجِيلِيُّ لِلإِنْسَانِ الكَامِلِ عَلَى رَفْضِ الْانْقِسَامِ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ؛ فَالكَمَالُ لَا يَكْتَمِلُ بِبَاطِنٍ يَدَّعِي المَعْرِفَةَ دُونَ أَثَرٍ فِي السُّلُوكِ، وَلَا بِظَاهِرٍ مُنْضَبِطٍ دُونَ تَحَوُّلٍ دَاخِلِي، وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ الحَقِيقِيَّ يَقُومُ عَلَى وَحْدَةِ البَاطِنِ وَالظَّاهِرِ. فالكَمَالُ لَيْسَ مَرْتَبَةً وَاحِدَةً، يَتَّضِحُ مِنْ نَصِ الجِيلِيّ أَنَّ الكَمَالَ نَفْسَهُ لَيْسَ

دَرَجَةً وَاحِدَةً يَبْلُغُهَا جَمِيعُ الكُمَّلِ بِالصُّورَةِ نَفْسِهَا، بَلْ إِنَّ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتًا فِي مَرَاتِبِ الكَمَالِ. فَمِنْهُمْ الكَامِلُ، وَمِنْهُمْ الْأَكْمَلُ1.(الجيلي،1997،ص211).

وَيَكْشِفُ هَذَا التَّفَاوُتُ عَنْ أَنَّ الكَمَالَ عِنْدَ الجِيلِيِّ بِنْيَةٌ مَرَاتِبِيَّةٌ، لَا حَدٌ سَاكِنٌ مُغْلَقٌ. وَبِهَذَا يَخْتَلِفُ مَفْهُومُ الكَمَالِ الصُّوفِي عَنِ التَّصَوُّرِ الَّذِي يَجْعَلُ الكَمَالَ صِفَةً جَامِدَةً؛ فَالكَمَالُ عِنْدَ الجِيلِيِّ يَظْهَرُ بِحَسَبِ مِقْدَارِ مَا تَحَقَّقَ بِهِ الإِنْسَانُ مِنَ الجَمْعِيَّةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالحُضُورِ. وَهُنَا يَتَحَوَّلُ مَفْهُومُ القُوَّةِ وَالفِعْلِ إِلَى مِعْيَارٍ لِقِرَاءَةِ التَّفَاوُتِ الإِنْسَانِيِّ. فَالإِنْسَانُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ فِي بَدَايَةِ السَّيْرِ تَكُونُ إِمْكَانَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مُتَحَقِّقَاتِهِ. وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ فِي السَّيْرِ تَقَلَّصَتِ المَسَافَةُ بَيْنَ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ فِعْلًا. ويشير الجِيلِيُّ الى أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ حَقَائِقُ الكَمَالِ فِيهِ بِالقُوَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ فِيهِ بِالفِعْلِ، وهَذَا يَقُودُ إِلَى فَهْمِ التَّفَاوُتِ فِي مَرَاتِبِ التَّجَلِّي. فَلَا يَتَجَلَّى الكَمَالُ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ التَّجَلِّي يَتَنَاسَبُ مَعَ الِاسْتِعْدَادِ وَمَعَ مِقْدَارِ مَا تَحَقَّقَ مِنْ هَذَا الِاسْتِعْدَادِ. وَمِنْ هُنَا تَظْهَرُ مَرَاتِبُ العَارِفِينَ وَالأَوْلِيَاءِ وَالكُمَّلِ2. وَالكَمَالُ فِي هَذَا الرِّيَاقِ لَيْسَ حَدًّا وَاحِدًا، بَلْ هُوَ سُلَّمٌ مِنَ التَّرَقِّي.فَكُلُّ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَعْضِ مَرَاتِبِ القُوَّةِ إِلَى بَعْضِ مَرَاتِبِ الفِعْلِ قَدْ تَحَقَّقَ بِقَدْرٍ مِنَ الكَمَالِ. أَمَّا الإِنْسَانُ الكَامِلُ فَهُوَ الَّذِي بَلَغَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَمْعِ وَالتَّحَقُّقِ. وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ مَفْهُومَ الكَمَالِ عِنْدَ الجِيلِيِّ مَرَاتِبِيٌّ وَدِينَامِيٌّ فِي آنٍ وَاحِدٍ. وَعِنْدَ أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ يَظْهَرُ نَمُوذَجُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ. وَهَذَا يَدْعَمُ البُعْدَ الْأَخْلَاقِيَّ فِي نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ لأَنَّ التَّحَقُّقَ الرُّوحِيَّ الَّذِي لَا يَظْهَرُ فِي الخُلُقِ وَالفِعْلِ يَظَلُّ تَحَقُّقًا نَاقِصًا.

**سَادساً: الإِنْسَانُ الكَامِلُ بَوْصْفِهِ مِرْآةً جَامِعَةً:**

يَحْتَفِظُ الجِيلِيُّ بِالبِنْيَةِ الجَمْعِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا التَّصَوُّرُ الْأَكْبَرِيُّ، وَيُعِيدُ صِيَاغَتَهَا فِي نَظَرِيَّتِهِ عَنِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ. فَالإِنْسَانُ الكَامِلُ هُوَ المَرْتَبَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا الحَقَائِقُ عَلَى نَحْرٍ أَوْسَعَ مِنَ الْإِنْسَانِ العَادِي. وَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ «الجَمْعِيَّةَ» عِنْدَ الجِيلِيِّ لَا تَعْنِي مُجَرَّدَ التَّفَوُّقِ، بَلْ الاسْتِيعَابَ وَالتَّوَازُنَ وَالتَّحَقُّقَ بِمَرَاتِبَ مُتَعَدِّدَةٍ. ولَا يَنْفَصِلُ مَفْهُومُ الكَمَالِ عِنْدَ الجِيلِيِّ عَنْ نَظَرِيَّتِهِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ فَالعَالَمُ فِي الرُّؤْيَةِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا الجِيلِيُّ، مَجْلى لآثَارِ الأَسْمَاءِ؛ فَفِي الوُجُودِ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ وَقُدْرَةٌ وَحِكْمَةٌ وَجَمَالٌ وَجَلَالٌ. وَيَتَمَيَّزُ الإِنْسَانُ بِأَنَّهُ يَحْمِلُ اسْتِعْدَادًا أَوْسَعَ لِلتَّحَقُّقِ بِمَعَانِي الأَسْمَاءِ مِنْ سَائِرِ المَوْجُودَاتِ. غَيْرَ أَنَّ الفَرْقَ يَبْقَى قَائِمًا بَيْنَ الاسْتِعْدَادِ لِلأَسْمَاءِ وَالتَّحَقُّقِ بِآثَارِهَا. فَقَدْ يَكُونُ الإِنْسَانُ قَابِلا لِلرَّحْمَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ بِهَا إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ القَسْوَةُ. وَيَكُونُ قَابِلا لِلْعِلْمِ، وَلَكِنَّهُ يَبْقَى فِي الجَهْلِ إِذَا عَطَّلَ إِمْكَانَاتِ المَعْرِفَةِ. وَيَكُونُ قَابِلًا لِلحِكْمَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَصِيرُ حَكِيمًا إِلَّا إِذَا تَحَوَّلَتِ الحِكْمَةُ مِنْ إِمْكَانٍ فِيهِ إِلَى حَالٍ مُتَحَقِّقٍ. وَبِهَذَا المَعْنَى تَكُونُ الْأَسْمَاءُ وَمَعَانِيهَا مِحْوَرًا لِلْعُبُور مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ.

**سابعًا: مِنَ المَاهِيَّةِ إِلَى الصَّيْرُورَةِ:**

تَكْمُنُ أَهَمُّ نُقْطَةٍ فِي هَذَا المَطْلَبِ فِي أَنَّ الجِيلِيَّ يُمَكِّنُنَا مِنْ قِرَاءَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عَلَى أَنَّهُ صَيْرُورَةٌ، لَا مُجَرَّدَ مَاهِيَّةٍ. فَالذَّاتُ تَحْمِلُ الإِمْكَانَ، ثُمَّ تَسْلُكُ مَرَاتِبَ التَّزْكِيَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ، حَتَّى تَنْتَقِلَ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ صِيَاغَةُ المَسَارِ الجِيلِيِّ عَلَى النَّحْوِ الآتي: قَابِلِيَّةٌ ← تَزْكِيَةٌ ← تَرَقٍّ فِي مَرَاتِبِ النَّفْسِ ← معرفة ← تَحَقُّق ← كَمَالٌ.

إِنَّ التَّحَقُّقَ بِالكَمَالِ عِنْدَ الجِيلِيِّ لَا يُخْتَزَلُ فِي المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ؛ إِذْ لَا يَكُونُ الإِنْسَانُ كَامِلًا لِأَنَّهُ اسْتَوْعَبَ المَفَاهِيمَ الصُّوفِيَّةَ أَوْ أَحَاطَ بِالمُصْطَلَحَاتِ فَالْمَعْرِفَةُ الَّتِي لَا تَتَحَوَّلُ إِلَى سُلُوكٍ وَتَزْكِيَةٍ وَوَعْيٍ تَبْقَى فِي حُدُودِ القُوَّةِ1.(الحكيم،167،1981). وَمِنْ هُنَا يَكْتَسِبُ السُّلُوكُ الصُّوفِيُّ دَوْرَهُ فِي إِخْرَاجِ الكَمَالِ مِنَ الإِمْكَانِ إِلَى الوُجُودِ. فَالتَّوْبَةُ وَالمُجَاهَدَةُ وَالمُرَاقَبَةُ وَالذِّكْرُ وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَصْفِيَةُ القَلْبِ لَيْسَتْ أَعْمَالًا مَنْفَصِلَةً عَنْ مَشْرُوعِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، بَلْ هِيَ وَسَائِلُ انْتِقَالٍ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى: إِنَّ الكَمَالَ لَا يُوهَبُ لِلإِنْسَانِ فِي صُورَةٍ مُكْتَمِلَةٍ مِنْ غَيْرِ سَيْرٍ وَتَرَقٍّ، بَلْ إِنَّ نَشْأَتَهُ تَحْمِلُ إِمْكَانَ الكَمَالِ، وَيَأْتِي السُّلُوكُ لِيَكْشِفَ هَذَا الإِمْكَانَ وَيُخْرِجَهُ إِلَى مَرْتَبَةِ التَّحَقُّقِ. وَهَذَا يُصْفِي عَلَى نَظَرِيَّةِ الجِيلِيِّ بُعْدًا تَرْبَوِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا مُهِمًّا؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُقَاسُ فَقَطْ بِمَا أُودِعَ فِيهِ، بَلْ بِمَا صَنَعَهُ بِمَا أُودِعَ فِيهِ. وَهَذَا المَسَارُ يُقَرِّبُ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ، وَهُوَ المَدْخَلُ الَّذِي يَعْتَمِدُهُ هَذَا البَحْثُ فِي قِرَاءَةِ الجِيلِيِّ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الأَوَّلِ:**

أَظْهَرَ هَذَا المَطْلَبُ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ الجِيلِيِّ تَقُومُ عَلَى بِنَاءٍ وُجُودِي وَمَعْرِفِي وَرُوحِيّ مُتَكَامِلٍ. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهَمَّ مِفْتَاحٍ لِفَهْمِ هَذَا البِنَاءِ هُوَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ؛ فَالذَّاتُ لا تُعْطَى في صُورَتِهَا الكَامِلَةِ مُنْذُ البِدَايَةِ، بَلْ تَحْمِلُ إِمْكَانًا يَتَطَلَّبُ التَّحَقُّقَ. وَبِذَلِكَ يَنْتَقِلُ الجِيلِيُّ بِمَفْهُومِ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ كَوْنِهِ مَرْتَبَةً نَظَرِيَّةً إِلَى كَوْنِهِ أُفُقًا لِتَحَوُّلِ الذَّاتِ.

وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ تُمَهِّدُ لِلمَطْلَبِ الثَّانِي الَّذِي سَيَتَنَاوَلُ مَرَاتِبَ التَّحَقُّقِ وَتَرَقِّي الذَّاتِ فِي التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَ الجِيلِيّ.

**المَطْلَبُ الثَّانِي:-:**

مَرَاتِبُ التَّحَقُّقِ وَتَرَقِّي الذَّاتِ فِي التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَ عَبْدِ الكَرِيمِ الجيلي:-:

إِذَا كَانَ المَطْلَبُ السَّابِقُ قَدْ كَشَفَ عَنِ الأُسُسِ الوُجُودِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ لِنَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ الجِيلِيّ، فَإِنَّ هَذَا المَطْلَبَ يَنْتَقِلُ إِلَى السُّؤَالِ الأَكْثَرِ اتِّصَالًا بِفَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ، وَهُوَ: كَيْفَ تَنْتَقِلُ الذَّاتُ مِنْ مَرْتَبَةِ القَابِلِيَّةِ إِلَى مَرْتَبَةِ التَّحَقُّق؟ وَيَكْتَسِبُ هَذَا السُّؤَالُ أَهَمِّيَّتَهُ مِنْ أَنَّ الجِيلِيَّ لَا يَقْدِمُ الْإِنْسَانَ الكَامِلَ بَوْصْفِهِ وَصْفًا سَاكِنًا، بَلْ يَفْتَحُ مَجَالًا لِفَهْمِ الكَمَالِ بَوْصْفِهِ مَسَارًا تَرَاتُبِيًّا لِلتَّحَوُّلِ، تَتَدَاخَلُ فِيهِ مَرَاتِبُ النَّفْسِ وَالقَلْبِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالاسْتِعْدَادِ وَالتَّحَقُّقِ.

**أَوَّلًا: مَرَاتِبُ النَّفْسِ وَبِنْيَةُ الترقي:**

يَكْشِفُ حَدِيثُ الجِيلِيِّ عَنْ مَرَاتِبِ النَّفْسِ عَنْ أَنَّ الذَّاتَ الصُّوفِيَّةَ لَا تُعْطى في صُورَةٍ مُكْتَمِلَةٍ، بَلْ تَمُرُّ بِمَرَاحِلَ مِنَ التَّهْذِيبِ وَالتَّحَوُّلِ. وَيَبْدَأُ هَذَا المَسَارُ مِنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى اللَّوَّامَةِ، ثُمَّ إِلَى المُطْمَئِنَّةِ، وَهُوَ تَدَرُّجٌ يَكْشِفُ عَنْ تَحَوُّلٍ فِي مَرْكَزِ الإِرَادَةِ وَالْوَعْيِ، لَا عَنْ مُجَرَّدِ تَغَيُّرٍ فِي الوَصْفِ1.(عفيفي،1963،ص134). فَالنَّفْسُ الْأَمَّارَةُ تُعَبِّرُ عَنْ ذَاتٍ تُهَيْمِنُ عَلَيْهَا الرَّغْبَةُ وَالدَّافِعُ، أَمَّا اللَّوَّامَةُ فَتَكْشِفُ عَنْ ظُهُورِ الوَعْيِ النَّقْدِي وَالمُحَاسَبَةِ، بَيْنَمَا تُمَثِّلُ المُطْمَئِنَّةُ مَرْحَلَةً يَتَحَقَّقُ فِيهَا قَدْرٌ أَعْلَى مِنَ الاتِّزَانِ وَالحُضُورِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ تَرَقِّي النَّفْسِ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ فَلْسَفِيًّا بَوْصْفِهِ تَحَوُّلًا فِي بِنْيَةِ الذَّاتِ نَفْسِهَا. وَلَا يَقْتَصِرُ مَسَارُ التَّحَقُّقِ عِنْدَ الجِيلِيِّ عَلَى تَرْكِ الأَفْعَالِ المَذْمُومَةِ، بَلْ يَسْتَهْدِفُ تَحَوُّلَ الذَّاتِ مِنْ حَالَةِ الْانْفِعَالِ إِلَى حَالَةِ الوَعْيِ. فَالإِنْسَانُ الَّذِي تَقُودُهُ شَهَوَاتُهُ وَخَوَاطِرُهُ دُونَ نَقْدٍ لَا يَكُونُ قَدْ بَلَغَ مَرْتَبَةَ التَّحَقُّقِ، وَإِنَّمَا يَبْدَأُ التَّرَقِّي حِينَ يَصِيرُ الإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى مُرَاقَبَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ وَتَمْيِيزِهِ وَإِعَادَةِ تَوْجِيهِهِ. وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ الوَعْيَ بِالنَّفْسِ لَيْسَ زِيَادَةً مَعْرِفِيَّةً فَقَطْ بَلْ هُوَ شَرْطٌ فِي تَحْرِيرِهَا

**ثانياً القَلْبُ وَتَحَوُّلُ مَرْكَزِ المَعْرِفَةِ:**

يَتَجَاوَزُ الجِيلِيُّ فَهْمَ القَلْبِ بَوْصْفِهِ مَوْضِعًا لِلْعَاطِفَةِ فَحَسْبُ؛ إِذْ يَتَّخِذُ القَلْبُ وَظِيفَةً مَعْرِفِيَّةً وَرُوحِيَّةً فِي بِنَاءِ الذَّاتِ1.(عفيفي،1963،ص145). وَهُنَا يَتَحَوَّلُ مَرْكَزُ المَعْرِفَةِ مِنَ الإِدْرَاكِ النَّظَرِيّ المُجَرَّدِ إِلَى وَعْيٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالحُضُورِ وَالتَّحَقُّقِ. وَمِنْ مَنْظُورِ بِنَاءِ الذَّاتِ، فَإِنَّ القَلْبَ يَمْثُلُ بَوْصْفِهِ مَوْضِعَ إِعَادَةِ تَرْتِيبِ العَلَاقَةِ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالإِرَادَةِ. وَلَا يَنْفِي الجِيلِيُّ العَقْلَ، وَلَا يَسْتَبْعِدُهُ مِنْ بِنَاءِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، وَلَكِنَّهُ يَضَعُهُ دَاخِلَ بِنْيَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ أَوْسَعَ. فَالعَقْلُ يُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ مِنَ التَّمْيِيزِ وَالنَّظَرِ وَالاسْتِدْلَالِ، وَلَكِنَّ التَّحَقُّقَ الصُّوفِيَّ يَتَطَلَّبُ أَيْضًا مَا يَتَجَاوَزُ الإِدْرَاكَ المَفْهُومِيَّ إِلَى الذَّوْقِ وَالكَشْفِ وَالحُضُورِ2.(الحكيم،1981،ص168). وَهَذَا لَا يَعْنِي تحْقِيرَ العَقْلِ، بَلْ تَحْدِيدَ وَظِيفَتِهِ وَحُدُودِهِ. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الكَمَالَ المَعْرِفِيَّ يَقُومُ عَلَى تَكَامُلِ أَدَوَاتِ الإِدْرَاكِ، لَا عَلَى هَيْمَنَةِ أَدَاةٍ وَاحِدَةٍ.

**ثالثاً: مِنَ المَعْرِفَةِ إِلَى التَّحَقُّقِ:**

يُمَثِّلُ التَّحَقُّقُ مَرْحَلَةً أَعْلَى مِنَ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَعْنِي أَنْ تَصِيرَ الحَقِيقَةُ وَصْفًا فِي الذَّاتِ، لَا مَعْلُومًا خَارِجِيًّا عَنْهَا. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الكَمَالِ لَا تَعْنِي تَحَقُّقَهُ، كَمَا أَنَّ فَهْمَ مَرَاتِبِ النَّفْسِ لَا يَعْنِي اجْتِيَازَهَا. وَهَذَا

الفَرْقُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ بالحَقِيقَةِ وَالتَّحَقُّق بالحَقِيقَةِ هُوَ مَا يَجْعَلُ السُّلُوكَ ضَرُورِيًّا. ويُمْكِنُ اعْتِبَارُ مَفْهُومِ الاسْتِعْدَادِ حَلْقَةَ الوَصْلِ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ عِنْدَ الجِيلِيّ. فَالاسْتِعْدَادُ هُوَ القَابِلِيَّةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا الإِنْسَانُ لِلتَّرَقِي فِي مَرَاتِبِ الْمَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ. وَلَكِنَّ الاسْتِعْدَادَ وَحْدَهُ لَا يَصْنَعُ الإِنْسَانَ الكَامِلَ؛ إِذْ لَا بُدَّ مِنْ التَّحَقُّقِ. وَالتَّحَقُّقُ فِي اللُّغَةِ الصُّوفِيَّةِ لَا يَعْنِي مَعْرِفَةَ الفِكْرَةِ ذِهْنِيًّا فَقَطْ بَلْ أَنْ تَتَحَوَّلَ المَعْرِفَةُ إِلَى حَالٍ رُوحِي وَوُجُودِي. فَقَدْ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ مَعْنَى الصَّبْرِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِالصَّبْرِ. وَقَدْ يَعْرِفُ مَعْنَى الرَّحْمَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِالرَّحْمَةِ. وَقَدْ يَدْرُسُ التَّوَاضُعَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ مُتَوَاضِعًا.

وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ الفَارِقُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ بِالشَّيْءِ وَالتَّحَقُّقِ بِهِ. فَالإِنْسَانُ الكَامِلُ عِنْدَ الجِيلِيّ لَا يَكْتَفِي بِأَنْ يَعْرِفَ مَعَانِيَ الكَمَالِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَصِيرَ هَذِهِ المَعَانِي حَاضِرَةً فِي وُجُودِهِ وَسُلُوكِهِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الانْتِقَالِ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ. فالقُوَّةُ وَالفِعْلُ عند الجيلي مِفْتَاحَيْنِ لِفَهْمِ التَّرَقِّي، ويَعُودُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالْفِعْلِ هُنَا لِيُفَسِرَ مَسَارَ التَّرَقِي. فَالذَّاتُ تَحْمِلُ إِمْكَانَ الكَمَالِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ كَامِلَةً فِعْلًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا تَتَحَقَّقُ بِهَذَا الْإِمْكَانِ1.(الجيلي،1997،ص216).وَيُمَثِّلُ هَذَا التَّمْيِيزُ أَحَدَ أَقْوَى المَدَاخِلِ الفَلْسَفِيَّةِ فِي دِرَاسَةِ الجِيلِيّ؛ لِأَنَّهُ يَنْقُلُ النَّظَرَ مِنَ المَاهِيَّةِ إِلَى الصَّيْرُورَةِ. فَالْإِنْسَانُ الكَامِلُ لَيْسَ وَصْفًا يَلْحَقُ بِالنَّوْعِ الإِنْسَانِي عَلَى نَحْوٍ مُتَسَاوٍ، بَلْ مَرْتَبَةٌ تَتَحَقَّقُ عَلَى دَرَجَاتٍ. ويَقُودُ التَّمْيِيزُ السَّابِقُ إِلَى فَهْمِ الكَمَالِ بَوْصْفِهِ مُتَرَاتِبًا، لَا مُسَاوِيًا بَيْنَ جَمِيعِ الأَفْرَادِ. وَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الجِيلِيَّ لَا يَتَحَدَّثُ عَنْ إِنْسَانٍ كَامِلٍ بِمَعْنَى عَامٍ فَقَطْ بَلْ عَنْ دَرَجَاتٍ مِنَ التَّحَقُّقِ تَبْلُغُ ذروتَهَا فِي النَّمُوذَجِ المُحَمَّدِي2.(الجيلي،1997،ص219). وَهَذَا التَّرَاتُبُ لَا يَعْنِي أَنَّ الكَمَالَ مَقْطُوعُ الصِّلَةِ بِبِنَاءِ الذَّاتِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ؛ فَهُوَ يَجْعَلُ السُّلُوكَ مَسَارًا لِلصُّعُودِ فِي مَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ.

**رابعاً: التَّزْكِيَةُ وَإِعَادَةُ تَشْكِيلِ الإِرَادَةِ:**

يُمْكِنُ فَهْمُ التَّزْكِيَةِ عِنْدَ الجِيلِيّ عَلَى أَنَّهَا عَمَلِيَّةُ إِعَادَةِ تَشْكِيلٍ لِلإِرَادَةِ. فَلَا يَكْفِي أَنْ يَتْرُكَ الإِنْسَانُ بَعْضَ الأَفْعَالِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَغَيَّرَ المَصْدَرُ الَّذِي تَصْدُرُ عَنْهُ أَفْعَالُهُ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ لَا يَقُومُ عَلَى ضَبْطِ الظَّاهِرِ فَقَطْ بَلْ عَلَى تَحَوُّلِ البَاطِنِ وَإِعَادَةِ تَوْجِيهِ القَصْدِ وَالرَّغْبَةِ. كما لَا يُفْهَمُ الكَمَالُ عِنْدَ الجِيلِيّ عَلَى أَنَّهُ غُلُوٌّ فِي بُعْدٍ وَاحِدٍ؛ فَالذَّاتُ الكَامِلَةُ هي الذَّاتُ الَّتِي تَنْتَظِمُ فِيهَا الْأَبْعَادُ فِي وَحْدَةٍ مُتَوَازِنَةٍ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ التَّرَقِي لَا يَعْنِي الهُرُوبَ مِنَ الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ تَحَقُّقَ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نَحْوٍ أَكْمَلَ. وَهَذِهِ النُّقْطَةُ مُهِمَّةٌ فِي قِرَاءَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ؛ لِأَنَّهَا تَحُولُ دُونَ فَهْمِ الكَمَالِ عَلَى أَنَّهُ إِلْغَاءٌ لِلبَشَرِيَّةِ أَوْ تَعَالٍ مُطْلَقٌ عَنْهَا.ويرى الجيلي إِنَّ الإِنْسَانَ لَا يَسْتَحِقُ مَعْنَى الخِلَافَةِ لِمُجَرَّدِ انْتِمَائِهِ إِلَى النَّوْعِ البَشَرِي، بَلْ إِنَّ الخِلَافَةَ تَتَّصِلُ بِمَدَى تَحَقُّقِهِ بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ إِمْكَانَاتِ اَلكَمَالِ. فَالاسْتِعْدَادُ لِلْخِلَافَةِ قُوَّةٌ، أَمَّا الْقِيَامُ بِمُقْتَضَيَاتِهَا ففعل1.(الجيلي،1997،ص232) وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَتَحَقَّقُ بِالعَدْلِ وَالحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ لَا يَكُونُ قَدْ حَقَّقَ مَعْنَى الخِلَافَةِ فِعْلًا، وَإِنْ كَانَ يَحْمِلُ اسْتِعْدَادَهَا. وَبِهَذَا تَتَحَوَّلُ الخِلَافَةُ مِنْ فِكْرَةِ تَفْضِيلٍ إِلَى مَسْؤُولِيَّةِ تَحَقُّقٍ. وَهَذَا المَعْنَى يَتَّسِقُ مَعَ جَوْهَرِ نَظَرِيَّةِ الجِيلي؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَهُ لَا يُقَاسُ بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ إِمْكَانٍ، بَلْ بِمَا أُخْرِجَهُ مِنْ هَذَا الإِمْكَانِ إِلَى الوُجُودِ.

ويَكْشِفُ مَفْهُومُ القُوَّةِ وَالفِعْلِ عَنْ بُعْدٍ أَخْلَاقِيّ مُهِمّ فِي نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ. فَالاسْتِعْدَادُ لِلْخَيْرِ لَا يُسَاوِي الخَيْرَ المُتَحَقِّقَ. وَالاسْتِعْدَادُ لِلْعَدْلِ لَا يُسَاوِي العَدْلَ المُتَحَقِّقَ. وَالاسْتِعْدَادُ لِلرَّحْمَةِ لَا يُسَاوِي الرَّحْمَةَ المُتَحَقِّقَةَ. وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ القِيمَ الأَخْلَاقِيَّةَ تَنْتَقِلُ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ عِنْدَمَا تَتَحَوَّلُ مِنْ مَعَانٍ مُمْكِنَةٍ إِلَى سُلُوكٍ مَعِيش. وَبِهَذَا يَكُونُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ هُوَ الَّذِي تَحَوَّلَتْ فِيهِ القِيمُ مِنَ المَعْرِفَةِ إِلَى المُمَارَسَةِ. وَمِنْ هُنَا يَكْتَسِبُ مَفْهُومُ الكَمَالِ دَلَالَةً عَمَلِيَّةً ؛ فَهُوَ لَيْسَ مَوْقِفًا ذِهْنِيًّا، بَلْ نَمَطُ وُجُودٍ وَسُلُوكٍ. إِذَا كَانَ الكَمَالُ بِالفِعْلِ يَقْتَضِي اتِّسَاعَ المَعْرِفَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ المَعْرِفَةَ لَا تَكُونُ فِي التَّصَوُّرِ الجِيلِيّ مُجَرَّدَ امْتِيَازٍ بَلْ هِيَ مَسْؤُولِيَّةٌ. فَكُلَّمَا اتَّسَعَ وَعْيُ الْإِنْسَانِ بِمَرَاتِبِ الوُجُودِ اتَّسَعَتْ مَسْؤُولِيَّتُهُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ نَفْسِهِ وَمَعَ غَيْرِهِ. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ العَارِفَ الحَقَّ لَا تَزِيدُهُ المَعْرِفَةُ تَكَبُّرًا، بَلْ تَزِيدُهُ تَوَاضُعًا وَمَسْؤُولِيَّةً. وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الكَمَالَ المَعْرِفِيَّ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الكَمَالِ الأَخْلَاقِيّ:

ومِنْ أَهَمِّ الدَّلَالَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ اسْتِخْلاصُهَا مِنْ نَظَرِيَّةِ الجِيلِيّ أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ لَيْسَ مَفْهُومًا مِيتَافِيزِيقِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ بوصفه مَشْرُوعًا تَرْبَوِيًّا. فَإِذَا كَانَ الكَمَالُ يَبْدَأُ بِالقُوَّةِ وَيَنْتَهِي إِلَى الفِعْلِ، فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ

تُصْبِحُ وَسِيلَةً لِإِخْرَاجِ الْإِمْكَانَاتِ الكَامِنَةِ فِي الإِنْسَانِ. وَهُنَا تَتَكَامَلُ تَرْبِيَةُ العَقْلِ مَعَ تَرْبِيَةِ القَلْبِ، وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ مَعَ تَهْذِيبِ السُّلُوكِ. وَبِهَذَا لَا يَكُونُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ مُجَرَّدَ مَوْضُوعٍ لِلتَّأَمُّلِ، بَلْ غَايَةً تَرْبَوِيَّةً تَسْعَى إِلَى تَحْوِيلِ الإِنْسَانِ مِنْ مَجْمُوعَةِ إِمْكَانَاتٍ إِلَى شَخْصِيَّةٍ مُتَحَقِّقَةٍ..

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّانِي:**

كَشَفَ هَذَا المَطْلَبُ عَنْ أَنَّ مَرَاتِبَ التَّحَقُّقِ عِنْدَ الجِيلِي تُعَبِّرُ عَنْ صَيْرُورَةٍ رُوحِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ، تَنْتَقِلُ فِيهَا الذَّاتُ مِنْ مَرْحَلَةٍ إِلَى أُخْرَى. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَرَاتِبَ النَّفْسِ لَا تُمَثِّلُ أَوْصَافًا جَامِدَةً، بَلْ دَرَجَاتٍ فِي تَحَوُّلِ الإِرَادَةِ وَالوَعْيِ، وَأَنَّ القَلْبَ وَالعَقْلَ وَالمَعْرِفَةَ وَالتَّزْكِيَةَ تَعْمَلُ فِي بِنَاءٍ مُتَكَامِلٍ لِتَحْوِيلِ القَابِلِيَّةِ إِلَى تَحَقُّقٍ. وَبِذَلِكَ، يَبْرُزُ مَفْهُومُ القُوَّةِ وَالفِعْلِ بَوْصْفِهِ المِفْتَاحَ الَّذِي يُفَسِرُ الانتِقَالَ مِنَ الإِنْسَانِ الْمُمْكِنِ إِلَى الإِنْسَانِ المُتَحَقِّقِ.وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ فَلْسَفَةَ بِنَاءِ الذَّاتِ عِنْدَ الجِيلِيّ يُمْكِنُ اخْتِزَالُهَا فِي المَسَارِ الآتي: النَّفْسُ← المُحَاسَبَةُ ← التَّزْكِيَةُ ← تَحَوُّلُ الإِرَادَةِ ← المَعْرِفَةُ ← التَّحَقُّقُ ← الكَمَالُ.

**المَطْلَبُ الثَّالِثُ:**

الكَمَالُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالتَّحَقُّقِ الرُّوحِي عِنْدَ الجِيلِيّ:

إِذَا كَانَ التَّحَقُّقُ هُوَ الانتِقَالُ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ، فَإِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَبْقَى هُوَ: مَا مَضْمُونُ هَذَا الكَمَالِ؟ وَهَلْ هُوَ كَمَالٌ مَعْرِفِيٌّ فقط، أَمْ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ بُعْدًا أَخْلَاقِيًّا وَرُوحِيًّا؟

يَكْشِفُ بِنَاءُ الجِيلِيّ عَنْ أَنَّ الكَمَالَ لَا يَسْتَقِيمُ إِذَا اخْتُزِلَ فِي المَعْرِفَةِ، بَلْ يَقُومُ عَلَى تَكَامُلِ المَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ وَالسُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ. وتَحْتَلُّ المَعْرِفَةُ مَوْقِعًا أَسَاسِيًّا فِي نَظَرِيَّةِ الجِيلِيّ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ لَا يَتَحَقَّقُ بِالجَمْعِيَّةِ مِنْ دُونِ مَعْرِفَةٍ. وَلَكِنَّ هَذِهِ المَعْرِفَةَ لَا تَكْفِي إِذَا بَقِيَتْ فِي مُسْتَوَى التَّصَوُّرِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَنْقَلِبَ إِلَى تَحَقُّقٍ1.(الجيلي،1997،ص234) .وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ المَعْرِفِيّ هُوَ مَعْرِفَةٌ تَتَحَوَّلُ إِلَى حَالٍ وَوَصْفٍ. وَلَا يَكْتَمِلُ الإِنْسَانُ بِمَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ إِذَا لَمْ يَنْعَكِسْ ذَلِكَ عَلَى خُلُقِهِ2.(الجيلي،1997،ص236).وَبالتالي فَإِنَّ الكَمَالَ يَتَضَمَّنُ تَحَوُّلًا فِي السُّلُوكِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ البُعْدَ الأَخْلَاقِيَّ جُزْءًا مِنْ بِنْيَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ، لَا عُنْصُرًا مُضَافًا إِلَيْهَا. وَبِهَذَا يَكُونُ الكَمَالُ الأَخْلَاقِيُّ هُوَ الأَثَرَ الظَّاهِرَ لِلتَّحَوُّلِ البَاطِنِي. وتجدر الاشارة الى ان الكمال يَقُومُ عِنْدَ الجِيلِيّ عَلَى وِحْدَةِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ؛ فَلَا يَكْفِي ادّعَاءُ التَّحَقُّقِ البَاطِنِي مَعَ فَسَادِ الظَّاهِرِ، وَلَا يَكْفِي انْضِبَاطُ الظَّاهِرِ دُونَ تَحَوُّلٍ فِي القَلْبِ وَالْإِرَادَةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ هُوَ الذَّاتُ الَّتِي تَنْتَظِمُ فِيهَا الحَقِيقَةُ البَاطِنَةُ وَالسُّلُوكُ الظَّاهِرُ فِي وَحْدَةٍ مُتَنَاغِمَةٍ. ويَسْتَلْزِمُ الكَمَالُ تَحْرِيرَ الإِرَادَةِ مِنْ هَيْمَنَةِ الهَوَى وَالتَّعَلُّقِ. وَهُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ التَّزْكِيَةَ لَا تَعْنِي قَمْعَ الذَّاتِ، بَلْ تَحْرِيرَهَا مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِمَا يُفْسِدُهَا. وَبِهَذَا يَتَّخِذُ الكَمَالُ بُعْدًا تحرّريًّا؛ فَالإِنْسَانُ الأَكْمَلُ هُوَ الْأَقْدَرُ عَلَى امْتِلَاكِ إِرَادَتِهِ وَتَوْجِيهِهَا3.(عفيفي،1963،ص234). ولا يُقَاسُ الكَمَالُ بِالعُزْلَةِ عَنِ العَالَمِ، بَلْ بِمَا يُنْتِجُهُ مِنْ مَسْؤُولِيَّةٍ.

فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ يَحْمِلُ مَرْتَبَةً مَعْرِفِيَّةً وَرُوحِيَّةً أَعْلَى، فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْعَلُهُ أَشَدَّ مُطَالَبَةً بِأَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ المَرْتَبَةُ فِي الخُلُقِ وَالعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَحُسْنِ العِلَاقَةِ بِالآخَرِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ الصُّوفِيّ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِتَحَوُّلِ المَعْرِفَةِ إِلَى مَسْؤُولِيَّةٍ.

**الإِنْسَانُ الكَامِلُ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا لِبِنَاءِ الذَّاتِ:**

تَكْمُنُ القِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِنَظَرِيَّةِ الجِيلِي فِي أَنَّهَا تُتِيحُ قِرَاءَةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا تربويا لِتَكْوِينِ الذَّاتِ. فَالإِنْسَانُ يَبْدَأُ بِالقَابِلِيَّةِ، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ فِي تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ وَتَوْجِيهِ إِرَادَتِهِ وَتَوْسِيعِ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى يَتَحَوَّلَ الكَمَالُ مِنْ إِمْكَانٍ إِلَى وُجُودٍ مُتَحَقِّقٍ1.(الجيلي،1997،ص239). وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ صِيَاغَةُ بِنَاءِ الكَمَالِ عِنْدَ الجِيلِيّ عَلَى النَّحْوِ الآتِي: قَابِلِيَّةٌ ← تَزْكِيَةٌ ← مَعْرِفَةٌ ← تَحَوُّلُ الإِرَادَةِ ← تَحَقُّقٌ ← تَخَلُّقٌ ← كَمَالٌ. وَمِنْ أَهَمِّ الدَّلَالَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ اسْتِخْلَاصُهَا مِنْ نَظَرِيَّةِ الجِيلِيّ أَنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ لَيْسَ مَفْهُومًا مِيتَافِيزِيقِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ بوصفه مَشْرُوعًا تَرْبَوِيًّا. فَإِذَا كَانَ الكَمَالُ يَبْدَأُ بِالقُوَّةِ وَيَنْتَهِي إِلَى الفِعْلِ، فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ تُصْبِحُ وَسِيلَةً لِلإِخْرَاجِ الإِمْكَانَاتِ الكَامِنَةِ فِي الإِنْسَانِ. وَهُنَا تَتَكَامَلُ تَرْبِيَةُ العَقْلِ مَعَ تَرْبِيَةِ القَلْبِ، وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ مَعَ

تَهْذِيبِ السُّلُوكِ2.(الجيلي،1997،ص241). وَبِهَذَا لَا يَكُونُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ مُجَرَّدَ مَوْضُوعٍ لِلتَّأَمُّلِ، بَلْ غَايَةً تَرْبَوِيَّةً تَسْعَى إِلَى تَحْوِيلِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَجْمُوعَةِ إِمْكَانَاتٍ إِلَى شَخْصِيَّةٍ مُتَحَقِّقَةٍ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّالِثِ:**

يَتَّضِحُ أَنَّ الكَمَالَ عِنْدَ الجِيلِيّ لَا يَقُومُ عَلَى بُعْدٍ وَاحِدٍ، بَلْ يَتَشَكَّلُ مِنْ تَكَامُلِ المَعْرِفَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالتَّحَقُّقِ الرُّوحِي. وَقَدْ بَيَّنَ التَّحْلِيلُ أَنَّ المَعْرِفَةَ لَا تَبْلُغُ غَايَتَهَا مَا لَمْ تَتَحَوَّلْ إِلَى وَصَفٍ فِي الذَّاتِ، وَأَنَّ التَّزْكِيَةَ لَا تَكْتَمِلُ مَا لَمْ تُعِدْ تَشْكِيلَ الإِرَادَةِ، وَأَنَّ التَّحَقُّقَ لَا يَكْتَمِلُ مَا لَمْ يَظْهَرْ فِي الخُلُقِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ. وَبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ مِنْ مَفْهُومٍ نَظَرِي إِلَى مَشْرُوعٍ فِي صِنَاعَةِ الذَّاتِ.

**خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الثَّالِثِ:**

يَكْشِفُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بَيْنَ القُوَّةِ وَالْفِعْلِ عَنْ أَنَّ الجِيلِيَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى الكَمَالِ بِوَصْفِهِ صِفَةً جَاهِزَةً، بَلْ بِوَصْفِهِ عَمَلِيَّةَ تَحَوُّلٍ. فَالقُوَّةُ تُمَثِّلُ الإِمْكَانَ، وَالفِعْلُ يُمَثِّلُ التَّحَقُّقَ. وَبَيْنَهُمَا تَقَعُ رِحْلَةُ الإِنْسَانِ. وَهَذِهِ الرِّحْلَةُ لَيْسَتْ مَعْرِفِيَّةً فَقَطْ، بَلْ رُوحِيَّةٌ وَأَخْلَاقِيَّةٌ وَوُجُودِيَّةٌ. فَالإِنْسَانُ يَبْدَأُ بِإِمْكَانِ المَعْرِفَةِ، ثُمَّ يَسْعَى إِلَى التَّحَقُّقِ بِهَا. وَيَبْدَأُ بِإِمْكَانِ التَّزْكِيَةِ، ثُمَّ يَعْمَلُ عَلَى تَحْقِيقِهَا. وَيَبْدَأُ بِإِمْكَانِ الجَمْعِيَّةِ، ثُمَّ يَتَرَقَّى حَتَّى تَصِيرَ الجَمْعِيَّةُ حَالًا مُتَحَقِّقًا. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الكَمَالَ عِنْدَ الجِيلِيِّ لَا يُقَاسُ بِمَا يَحْمِلُهُ الإِنْسَانُ مِنْ طَاقَاتٍ، بَلْ بِمَا حَقَّقَهُ مِنْهَا. وَبِهَذَا تَصِيرُ ثُنَائِيَّةُ القُوَّةِ وَالفِعْلِ مِفْتَاحًا لِفَهْمِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ: فَالقُوَّةُ هِيَ وَعْدُ الكَمَالِ، وَالْفِعْلُ هُوَ تَحَقُّقُ هَذَا الوَعْدِ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَكُونُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ عِنْدَ الجِيلِيِّ هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي تَحَوَّلَ فِيهِ المُمْكِنُ إِلَى مُتَحَقِّقٍ، وَالاسْتِعْدَادُ إِلَى حَالٍ، وَالمَعْرِفَةُ إِلَى وُجُودٍ، وَالقِيمَةُ إِلَى سُلُوكٍ. وَهُنَا يَكْمُنُ الفَرْقُ الحَاسِمُ بَيْنَ إِنْسَانِيَّةٍ مُمْكِنَةٍ وَإِنْسَانِيَّةٍ مُتَحَقِّقَةٍ.

وقد أَظْهَرَ المَبْحَثُ الثَّالِثُ أَنَّ عَبْدَ الكَرِيمِ الجِيلِيَّ قَدْ أَعَادَ بِنَاءَ نَظَرِيَّةِ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي صِيَاغَةٍ أَكْثَرَ صَرَاحَةً وَتَنْظِيمًا. قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَسَاسَ هَذَا البِنَاءِ هُوَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ، وَأَنَّ هَذَا التَّمْيِيزَ يَفْتَحُ البَابَ أَمَامَ فَهْمِ الكَمَالِ بَوْصْفِهِ صَيْرُورَةً وَتَرَقِّيًا. وَتَتَدَاخَلُ فِي هَذِهِ الصَّيْرُورَةِ مَرَاتِبُ النَّفْسِ وَالقَلْبِ وَالعَقْلِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالتَّحَقُّقِ، حَتَّى تَصِلَ الذَّاتُ إِلَى مَرْتَبَةٍ يَنْتَظِمُ فِيهَا البَاطِنُ وَالظَّاهِرُ، وَالمَعْرِفَةُ وَالخُلُقُ، وَالإِرَادَةُ وَالمَسْؤُولِيَّةُ. وَمِنْ هُنَا، يُمْكِنُ تَلْخِيصُ النُّمُوذَج الجِيلِيّ فِي المَسَارِ الآتي: الإِمْكَانُ ← التَّزْكِيَةُ ← التَّرَقِي ← المَعْرِفَةُ ← التَّحَقُّقُ ← التَّخَلُقُ ← الكَمَالُ. بهذا الامتداد أصبح المبحث أكثر اكتمالاً من الناحية الفلسفية، ولا سيما في بيان أن الجيلي لا يعرض الإنسان الكامل كحقيقة ساكنة، وإنما بوصفه انتقالاً من الإمكان إلى التحقق ومن الاستعداد إلى الصيرورة. وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ تُمَهِّدُ لِلمَبْحَثِ الرَّابِعِ الَّذِي سَيَتَنَاوَلُ بِنَاءَ الذَّاتِ وَتَحَقُّقَ الكَمَالِ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِي وَالجِيلِي: مُقَارَبَةً فَلْسَفِيَّةً صُوفِيَّةً مُقَارَنَةً .

**المَبْحَثُ الرَّابِعُ:**

بِنَاءُ الذَّاتِ وَتَحَقُّقُ الكَمَالِ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ: مُقَارَبَةٌ فَلْسَفِيَّةٌ صُوفِيَّةٌ مُقَارَنَةٌ:

يُمَثِّلُ هَذَا المَبْحَثُ المَجَالَ الأَسَاسِيَّ الَّذِي تَتَجَلَّى فِيهِ القِيمَةُ التَّحْلِيلِيَّةُ وَالمُقَارَنَةُ لِلْبَحْثِ؛ إِذْ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ عَرْضِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ، بَلْ يَسْعَى إِلَى الكَشْفِ عَنْ طَبِيعَةِ العَلَاقَةِ بَيْنَ النَّمُوذَجَيْنِ، وَعَنْ مَوَاضِعِ الائْتِلَافِ وَالاخْتِلَافِ فِي تَصَوُّرِهِمَا لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ وَمَرْتَبَتِهِ وَمَسَارِ تَحَقُّقِهِ بِالكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ ابْنُ عَرَبِيّ قَدْ أَسَّسَ بِنَاءً وُجُودِيًّا وَمَعْرِفِيًّا عَمِيقًا لِمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ، فَإِنَّ الجِيلِيَّ قَدْ أَعَادَ صِيَاغَةَ عَدَدٍ مِنْ هَذِهِ المَبَادِئِ فِي بِنَاءٍ أَكْثَرَ تَرْكِيزًا عَلَى الإِنْسَانِ الكَامِلِ بِوَصْفِهِ مَحْوَرًا صَرِيحًا لِلنَّظَرِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ المُقَارَنَةَ لَا تَقُومُ عَلَى إِثْبَاتِ التَّأَثُرِ وَحْدَهُ، بَلْ عَلَى تَحْلِيلِ كَيْفِيَّةِ انْتِقَالِ المَفْهُومِ مِنْ الجَمْعِيَّةِ وَالخِلَافَةِ وَالاسْتِعْدَادِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ إِلَى القُوَّةِ وَالفِعْلِ وَمَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ عِنْدَ الجيلي.

**المَطْلَبُ الأَوَّلُ:-:**

مِنَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بَوْصْفِهِ حَقِيقَةً وُجُودِيَّةً إِلَى الْإِنْسَانِ الكَامِلِ بَوْصْفِهِ ذَاتًا مُتَحَقِّقَةً:-:

**أَوَّلًا: وَحْدَةُ الأَصْلِ وَاخْتِلَافُ صِيَاغَةِ المَفْهُومِ:**

يَنْطَلِقُ ابْنُ عَرَبِي وَالجِيلِيُّ مِنْ أُفُقٍ صُوفِي وَاحِدٍ يَرَى أَنَّ الإِنْسَانَ يَحْتَلُّ مَرْتَبَةً خَاصَّةً فِي نِظَامِ الوُجُودِ، غَيْرَ أَنَّ صِيَاغَةَ المَفْهُوم تَأْخُذُ عِنْدَ كُلّ مِنْهُمَا طَابِعًا مُتَمَيِّزًا. فَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ يَتَوَزَّعُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عَلَى شَبَكَةٍ مِنَ المَفَاهِيمِ، مِثْلَ: الكَوْنِ الجَامِعِ، وَالخِلَافَةِ، وَالصُّورَةِ، وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ، وَالوِلَايَةِ. أَمَّا عِنْدَ الجِيلِيّ، فَيَنْتَقِلُ المَفْهُومُ إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنَ التَّنْظِيمِ وَالتَّصْرِيحِ ؛ إِذْ يَجْعَلُهُ مَوْضُوعًا مُسْتَقِلًّا وَمَرْكَزِيًّا، وَيَبْنِي حَوْلَهُ نَظَرِيَّةً أَكْثَرَ تَرْتِيبًا فِي مَرَاتِبِ الكَمَالِ وَالتَّحَقُّقِ وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ الجِيلِيَّ لَا يَقْطَعُ مَعَ الْأُفُقِ الْأَكْبَرِي، بَلْ يُعِيدُ مَرْكَزَةَ المَفْهُومِ وَتَنْظِيمَهُ.

**ثَانِيًا: الجَمْعِيَّةُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي وَالقُوَّةُ وَالْفِعْلُ عِنْدَ الجِيلي:**

يُمَثِّلُ مَفْهُومُ الجَمْعِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ أَسَاسًا لِفَهْمِ خُصُوصِيَّةِ الإِنْسَانِ؛ فَهُوَ «الكَوْنُ الجَامِعُ» الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ حَقَائِقُ مَرَاتِبَ مُتَعَدِّدَةٍ3.(ابن عربي،1980،ص48). وَلَكِنَّ هَذِهِ الجَمْعِيَّةَ تَطْرَحُ سُؤَالًا: هَلْ يَعْنِي وُجُودُهَا فِي حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلٌ بِالْفِعْلِ؟ هُنَا تَبْرُزُ أَهَمِّيَّةُ صِيَاغَةِ الجيلي الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ مَا يَكُونُ فِي الإِنْسَانِ بِالقُوَّةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ بِالْفِعْلِ4.(ابن عربي،1980،ص49). وَيُمَكِّنُ هَذَا التَّمْيِيزُ مِنْ حَلِ إِشْكَالٍ فَلْسَفِي مُهِمّ: فَالطَّبِيعَةُ الإِنْسَانِيَّةُ قَدْ تَحْمِلُ إِمْكَانَ الجَمْعِيَّةِ، وَلَكِنَّ الكَمَالَ الْفِعْلِيَّ يَتَطَلَّبُ تَحَقُّقًا. وَبِذَلِكَ يتجلى عند الجِيلِيُّ تَحْوِيلِ مَفْهُومِ الكَمَالِ مِنَ المَرْتَبَةِ إِلَى الصَّيْرُورَةِ.

**ثَالِثًا: المَرْتَبَةُ وَالتَّحَقُّقُ:**

تُظْهِرُ المُقَارَنَةُ أَنَّ هُنَاكَ تَمْيِيزًا صَرُورِيًّا بَيْنَ مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ وَتَحَقُّقِ الإِنْسَانِ بِهَذِهِ المَرْتَبَةِ. فَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي، تُؤَسِّس الجَمْعِيَّةُ وَالخِلَافَةُ وَالصُّورَةُ لِمَرْتَبَةٍ وُجُودِيَّةٍ خَاصَّةٍ1.(ابن عربي،1980،ص51). أَمَّا السُّلُوكُ وَالتَّزْكِيَةُ وَالمَعْرِفَةُ فَتَتَّصِلُ بِكَيْفِيَّةِ تَحَقُّقِ الإِنْسَانِ بِمُقْتَضَيَاتِ تِلْكَ المَرْتَبَةِ. وَعِنْدَ الجِيلِيّ، يَظْهَرُ هَذَا التَّمْيِيزُ عَلَى نَحْوٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا مِنْ خِلَالِ ثُنَائِيَّةِ القُوَّةِ وَالفِعْلِ. وَمِنْ هُنَا تَتَّضِحُ النَّتِيجَةُ المَرْكَزِيَّةُ: المَرْتَبَةُ تُؤَسِسُ الإِمْكَانَ، وَالسُّلُوكُ يُحَوّلُ الإِمْكَانَ إِلَى تَحَقُّق. وتُظْهِرُ المُقَارَنَةُ أَنَّ قِرَاءَةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ مَنْظُور بِنَاءِ الذَّاتِ تَفْرِضُ الانتِقَالَ مِنْ سُؤَالِ المَاهِيَّةِ إِلَى سُؤَالِ التَّكَوُّنِ. فَلَا يَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ مَا هِيَ مَرْتَبَةُ الإِنْسَانِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ نَسْأَلَ: كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الإِنْسَانُ مِنْ قَابِلِيَّةِ الكَمَالِ إِلَى التَّحَقُّقِ بِهِ؟

خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الأَوَّلِ:-أَظْهَرَتِ المُقَارَنَةُ أَنَّ ابْنَ عَرَبِيّ وَالجِيلِيَّ يَتَّفِقَانِ فِي الْأُسُسِ الكُبْرَى لِمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ، غَيْرَ أَنَّ الجِيلِيَّ يَمِيلُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّصْرِيحِ وَالتَّنْظِيمِ. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَنْهُومَ الجَمْعِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ يُمْكِنُ أَنْ يُقْرَأَ فِي ضَوْءِ تَمْيِيزِ الجِيلِيّ بَيْنَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ؛ وَهُوَ مَا يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ الكَمَالَ لَا يَكْمُنُ فِي المَرْتَبَةِ وَحْدَهَا، بَلْ فِي التَّحَقُّقِ بِهَا. وَبِهَذَا يَتَحَوَّلُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ مِنْ مَفْهُومٍ أُنْطُولُوجِيّ إِلَى مَفْهُومٍ تَكْوِينِي يَتَّصِلُ بِصَيْرُورَةِ الذَّاتِ وَتَحَوُّلِهَا..

**المَطْلَبُ الثَّانِي:**

مَعْرِفَةُ الذَّاتِ وَالتَّزْكِيَةُ وَالحُرِّيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ: آلِيَّاتُ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ:

**أَوَّلاً: مَعْرِفَةُ الذَّاتِ بَيْنَ المَرْتَبَةِ وَالتَّحَوُّلِ:**

تَحْتَلُّ مَعْرِفَةُ الذَّاتِ مَوْقِعًا أَسَاسِيًّا فِي النُّمُوذَجَيْنِ؛ فَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي تَتَّصِلُ مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ بِفَهْمِ جَمْعِيَّتِهِ وَمَرْتَبَتِهِ وَافْتِقَارِهِ1.(ابن عربي،1980،ص52). أَمَّا عِنْدَ الجِيلِي، فَتَتَّصِلُ مَعْرِفَةُ الذَّاتِ أَيْضًا بِمَرَاتِبِ النَّفْسِ وَبِالانتِقَالِ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ2.(الجيلي،1997،ص43). وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ لَا تَبْقَى مَعْرِفَةً وَصْفِيَّةً، بَلْ تَتَحَوَّلُ إِلَى مَعْرِفَةٍ تُحَرِّكُ الذَّاتَ نَحْوَ تَغْيِيرِ نَفْسِهَا.

**ثَانِيًا: التَّزْكِيَةُ بَوْصْفِهَا إِعَادَةَ بِنَاءٍ:**

يَتَّفِقُ النُّمُوذَجَانِ فِي أَنَّ الكَمَالَ لَا يَتَحَقَّقُ دُونَ تَزْكِيَةٍ وَمُجَاهَدَةٍ وَتَصْفِيَةٍ لِلْمَحَلِ3.(الجيلي،1997،ص53) وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ التَّزْكِيَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُفْهَمَ بَوْصْفِهَا تَرْكًا سَلْبِيًّا لِلرَّذَائِلِ فَحَسْبُ، بَلْ بَوْصْفِهَا إِعَادَةَ تَشْكِيلٍ لِمَرْكَزِ

الإِرَادَةِ. فَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي تَتَّصِلُ التَّصْفِيَةُ بِقَابِلِيَّةِ القَلْبِ وَالاسْتِعْدَادِ، وَعِنْدَ الجِيلِيّ تَظْهَرُ فِي مَرَاتِبِ النَّفْسِ وَتَرَقِّيهَا.

**ثَالِثًا: الحُرِّيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ وَتَحْرِيرُ الإِرَادَةِ:**

تَكْشِفُ المُقَارَنَةُ عَنْ أَنَّ فِكْرَةَ الكَمَالِ فِي النَّمُوذَجَيْنِ تَتَّصِلُ بِمَعْنًى خَاصٍّ لِلحُرِّيَّةِ. فَالذَّاتُ الَّتِي تَخْضَعُ لِهَوَاهَا خُضُوعًا كُلِّيًّا لَا تَكُونُ حُرَّةً بِالمَعْنَى الرُّوحِي، حَتَّى لَوْ ظَنَّتْ أَنَّهَا تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ تَقُومُ عَلَى تَحْرِيرِ الإِرَادَةِ مِنَ الاسْتِعْبَادِ الدَّاخِلِي. وَهَذَا يَجْعَلُ العُبُودِيَّةَ لِلَّهِ، فِي هَذَا الرِّيَاقِ، لَا نَقِيضا لِلحُرِّيَّةِ، بَلْ طَرِيقًا إِلى تَحْرِيرِ الإِنْسَانِ مِنْ عُبُودِيَّةِ الهَوَى.

**رَابِعًا: الفَنَاءُ وَنَقْدُ الأَنَا:**

يَتَّفِقُ البِنَاءُ الصُّوفِيُّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِي وَالجِيلِيّ عَلَى أَنَّ الذَّاتَ لَا تَبْلُغُ مَرْتَبَةً أَعْلَى مِنَ التَّحَقُّقِ مَا دَامَتْ أَسِيرَةً لِأَنَانِيَّتِهَا1. وَهُنَا يُمَثِّلُ الفَنَاءُ نَقْدًا لِمَرْكَزِيَّةِ الأَنَا، لَا إِلْغَاءً لِلوُجُودِ الإِنْسَانِي. ثُمَّ يَأْتِي البَقَاءُ لِيُعِيدَ الذَّاتَ إِلَى الفِعْلِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ بَعْدَ تَحَوُّلِ مَرْكَزِهَا الدَّاخِلِيّ. وَبِهَذَا تَأْخُذُ عَمَلِيَّةُ بِنَاءِ الذَّاتِ صُورَةً جَدَلِيَّةً: نَقْدُ الأَنَا ← تَحَوُّلُ الوَعْي ← إِعَادَةُ بِنَاءِ الذَّاتِ.

**خَامِسًا: المَعْرِفَةُ الَّتِي تُغَيِّرُ صَاحِبَهَا:**

يَتَّفِقُ النُّمُوذَجَانِ فِي أَنَّ المَعْرِفَةَ الحَقَّةَ لَا تَبْقَى خَارِجَ الذَّاتِ، بَلْ تَتَحَوَّلُ إِلَى حَالٍ وَوَصْفٍ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الكَمَالَ المَعْرِفِيَّ لَا يُقَاسُ بِكَثْرَةِ المَعْلُومَاتِ، بَلْ بِقُدْرَةِ المَعْرِفَةِ عَلَى تَحْوِيلِ الإِنْسَانِ. وَهُنَا يَتَّحِدُ السُّؤَالُ المَعْرِفِيُّ وَالسُّؤَالُ الْأَخْلَاقِيُّ: فَمَاذَا تَفْعَلُ المَعْرِفَةُ فِي صَاحِبِهَا؟

**سَادِسًا: مِنَ التَّزْكِيَةِ إِلَى صِنَاعَةِ الذَّاتِ:**

يُمْكِنُ فِي ضَوْءِ المُقَارَنَةِ صِيَاغَةُ مَسَارٍ مُشْتَرَكٍ لِبِنَاءِ الذَّاتِ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ ← تَزْكِيَتُهَا ← مُجَاهَدَتُهَا ← تَحْرِيرُ الإِرَادَةِ ← تَصْفِيَةُ القَلْبِ ← المَعْرِفَةُ ← التَّحَقُّقُ. وَهَذَا المَسَارُ يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ الكَمَالَ الصُّوفِيَّ لَا يُعْطَى لِلإِنْسَانِ مِنْ خَارِجِهِ، بَلْ يَقْتَضِي عَمَلًا مُسْتَمِرًّا عَلَى الذَّاتِ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّانِي:**

أَظْهَرَتِ المُقَارَنَةُ أَنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ وَالتَّزْكِيَةَ وَتَحْرِيرَ الإِرَادَةِ تُمَثِّلُ عَنَاصِرَ مُشْتَرَكَةً فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالْجِيلِيّ. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الحُرِّيَّةَ فِي هَذَا الرِّيَاقِ لَا تَعْنِي الانْفِلَاتَ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ، بَلْ تَعْنِي التَّحَرُّرَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الهَوَى وَالأَنَا وَالتَّعَلُّقِ. وَبِذَلِكَ يُمْكِنُ قِرَاءَةُ التَّصَوُّفِ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِتَحْرِيرِ الإِرَادَةِ مِنْ دَاخِلِهَا

**المَطْلَبُ الثَّالِثُ:** حُدُودُ الائْتِلَافِ وَالاخْتِلَافِ وَالقِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِنَمُوذَجِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ:

**أَوَّلًا: مَوَاضِعُ الائْتِلَافِ:**

يُمْكِنُ رَصْدُ أَهَمِّ مَوَاضِعِ الائْتِلَافِ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ فِي جُمْلَةٍ مِنَ القَضَايَا المَرْكَزِيَّةِ: أَوَّلُهَا أَنَّ الإِنْسَانَ يَحْتَلُّ مَرْتَبَةً خَاصَّةً فِي الوُجُودِ.

وَثَانِيهَا أَنَّ الكَمَالَ يَرْتَبِطُ بِالجَمْعِيَّةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّحَقُّقِ. وَثَالِثُهَا أَنَّ النَّمُوذَجَ المُحَمَّدِيَّ يُمَثِّلُ ذُرْوَةَ الكَمَالِ الْإِنْسَانِي. وَرَابِعُهَا أَنَّ التَّزْكِيَةَ وَالمَعْرِفَةَ وَالسُّلُوكَ لَا تَنْفَصِلُ عَنْ التَّحَقُّقِ. وَخَامِسُهَا أَنَّ الكَمَالَ لَا يَعْنِي إِلْغَاءَ البَشَرِيَّةِ، بَلْ تَحَقُّقَهَا فِي صُورَةٍ أَكْمَلَ.

**ثَانِيًا: مَوَاضِعُ الاخْتِلَافِ:**

لا يَعْنِي الائْتِلافُ التَّطَابُقَ؛ فَهُنَاكَ فَرْقٌ فِي طَرِيقَةِ بِنَاءِ المَفْهُومِ. فَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِي، يَظْهَرُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ دَاخِلَ شَبَكَةٍ شَدِيدَةِ التَّرْكِيبِ مِنَ المَفَاهِيمِ الوُجُودِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ. أَمَّا الجِيلِيُّ فَيُقَدِّمُ المَفْهُومَ فِي صِيَاغَةٍ أَكْثَرَ تَرْتِيبًا وَتَصْرِيحًا، وَيُبْرِزُ عَلَى نَحْوٍ أَوْضَحَ ثُنَائِيَّةَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ1.(الجيلي،1997،ص43). وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ اخْتِلَافَهُمَا هُوَ، فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْهُ، اخْتِلَافٌ فِي طَرِيقَةِ التَّنْظِيمِ وَالتَّعْبِيرِ، مَعَ وُجُودِ اخْتِلافَاتٍ فِي دَرَجَةِ تَرْكِيزِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى بَعْضِ العَنَاصِرِ..

**ثَالِثًا: القِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِمَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ:**

تَكْمُنُ القِيمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِلنَّمُوذَجَيْنِ فِي أَنَّهُمَا يَطْرَحَانِ تَصَوُّرًا لِلإِنْسَانِ لَا يَخْتَزِلُهُ فِي مَا هُوَ عَلَيْهِ، بَلْ يَفْتَحُهُ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ إِلَيْهِ. وَهُنَا يَتَحَوَّلُ الإِنْسَانُ مِنْ مَاهِيَّةٍ ثَابِتَةٍ إِلَى مَشْرُوعٍ. وَهَذَا المَشْرُوعُ يَقُومُ عَلَى أَنَّ الذَّاتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى نَفْسِهَا، وَأَنْ تُعِيدَ تَوْجِيهَ إِرَادَتِهَا، وَأَنْ تَنْتَقِلَ مِنَ التَّشَتُّتِ إِلَى الوَحْدَةِ، وَمِنَ الغَفْلَةِ إِلَى الوَعْيِ، وَمِنَ الْإِمْكَانِ إِلَى التَّحَقُّقِ.

**رَابِعًا: القِيمَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ:**

لَا يَسْتَقِيمُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِذَا انْفَصَلَ عَنِ الْأَخْلَاقِ. فَالمَعْرِفَةُ الَّتِي لَا تُغَيِّرُ خُلُقَ صَاحِبِهَا تَظَلُّ نَاقِصَةً مِنْ مَنْظُورِ التَّحَقُّقِ2.(الجيلي،1997،ص43). وَالكَمَالُ الَّذِي لَا يَنْعَكِسُ عَلَى عِلَاقَةِ الإِنْسَانِ بِغَيْرِهِ يَظَلُّ دَعْوَى غَيْرَ مُكْتَمِلَةٍ. وَمِنْ هُنَا تَتَّصِلُ قِيمُ الرَّحْمَةِ وَالعَدْلِ وَالتَّوَاضُعِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ بِمَفْهُومِ الكَمَالِ..

**خَامِسًا: مِنَ الكَمَالِ الفَرْدِي إِلَى المَسْؤُولِيَّةِ عَنِ العَالَمِ:**

إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ مُتَحَقِّقًا بِمَرْتَبَةِ الجَمْعِيَّةِ وَالخِلَافَةِ، فَإِنَّ كَمَالَهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ كَانْسِحَابٍ مِنَ العَالَمِ3.(الجيلي،56،1997). بَلْ عَلَى العَكْسِ، يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ ازْدِيَادَ المَعْرِفَةِ يَعْنِي ازْدِيَادَ المَسْؤُولِيَّةِ. وَبِهَذَا تَتَحَوَّلُ فَلْسَفَةُ بِنَاءِ الذَّاتِ إِلَى فَلْسَفَةٍ فِي الحُضُورِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي العَالَمِ..

**سَادِسًا: مِنَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِلَى سُؤَالِ المَعْنَى:**

يَفْتَحُ مَفْهُومُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ سُؤَالًا أَكْثَرَ عُمُومًا: مَا الَّذِي يَجْعَلُ الحَيَاةَ الإِنْسَانِيَّةَ ذَاتَ غَايَةٍ؟ وَيُقَدِّمُ النَّمُوذَجُ الصُّوفِيُّ إِجَابَةً تَقُومُ عَلَى أَنَّ المَعْنَى لَا يُوجَدُ فِي الإِشْبَاعِ المُسْتَمِرِ لِلرَّغَبَاتِ، بَلْ فِي تَحَوُّلِ الإِنْسَانِ نَحْوَ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ وَخَيْرٌ وَكَمَالٌ. وَمِنْ هُنَا تَتَّصِلُ نَظَرِيَّةُ الإِنْسَانِ الكَامِلِ بِسُؤَالِ المَعْنَى وَالغَايَةِ وَالْقِيمَةِ..

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّالِثِ:**

أَظْهَرَتِ المُقَارَنَةُ أَنَّ ابْنَ عَرَبِيّ وَالجِيلِيَّ يَنْتَمِيَانِ إِلَى أُفُقٍ وَاحِدٍ فِي جُمْلَةٍ مِنَ المَبَادِئِ، غَيْرَ أَنَّ الجِيلِيَّ أَعَادَ تَنْظِيمَ مَفْهُومِ الْإِنْسَانِ الكَامِلِ فِي صِيَاغَةٍ أَكْثَرَ صَرَاحَةً. وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ القِيمَةَ الفَلْسَفِيَّةَ لِلنَّمُوذَجَيْنِ تَكْمُنُ فِي تَصَوُّرِ الإِنْسَانِ بَوْصْفِهِ مَشْرُوعًا لِلتَّحَقُّقِ، وَأَنَّ الكَمَالَ لَا يَعْنِي مُجَرَّدَ المَرْتَبَةِ، بَلْ يَعْنِي تَحَوُّلَ المَعْرِفَةِ وَالإِرَادَةِ وَالأَخْلَاق .

**خُلاصَةُ المَبْحَثِ الرَّابِع:**

كَشَفَ هَذَا المَبْحَثُ عَنْ أَنَّ المُقَارَنَةَ بَيْنَ ابْنِ عَرَبِي وَالجِيلِي تُظْهِرُ تَكَامُلًا بَيْنَ بُعْدَيْنِ: تَأْسِيسِ مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ، وَتَحْلِيلِ مَسَارِ تَحَقُّقِهِ. فَعِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ يَبْرُزُ التَّأْسِيسُ الوُجُودِيُّ مِنْ خِلَالِ الجَمْعِيَّةِ وَالخِلَافَةِ وَالصُّورَةِ وَالاسْتِعْدَادِ، وَعِنْدَ الجِيلِيّ يَظْهَرُ التَّرْكِيزُ الأَوْضَحُ عَلَى الانتِقَالِ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ وَمَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ. وَبِذَلِكَ يَتَحَدَّدُ إِسْهَامُ هَذَا الْبَحْثِ فِي قِرَاءَةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثِيَّةٍ مُتَرَابِطَةٍ: المَرْتَبَةُ ← بِنَاءُ الذَّاتِ ← التَّحَقُّقُ بِالكَمَالِ. وَمِنْ هُنَا، لَا يَعُودُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ مَفْهُومًا يَنْتَمِي إِلَى الْمِيتَافِيزِيقَا الصُّوفِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ يَغْدُو نَمُوذَجًا فَلْسَفِيًّا صُوفِيًّا لِتَكَوُنِ الذَّاتِ وَتَحْرِيرِ الإِرَادَةِ وَتَحْقِيقِ المَسْؤُولِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ.

**الخَاتِمَةُ العَامَّةُ لِلبَحْثِ:**

يَكْشِفُ البَحْثُ فِي مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عَنْ أَنَّ هَذَا المَفْهُومَ لَا يَنْتَمِي إِلَى حَقْلٍ صُوفِي مُنْغَلِقٍ، بَلْ يَتَقَاطَعُ مَعَ أَسْئِلَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ عَمِيقَةٍ تَتَّصِلُ بِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ، وَبِإِمْكَانِ تَحَوُّلِهِ، وَبِمَعْنَى الكَمَالِ، وَبِالعَلَاقَةِ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ وَالإِرَادَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ. وَقَدْ بَيَّنَ البَحْثُ أَنَّ ابْنَ عَرَبِيّ يُؤَسِسُ لِمَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِ مَفَاهِيمِ الجَمْعِيَّةِ وَالخِلَافَةِ وَالصُّورَةِ وَالاسْتِعْدَادِ وَالتَّجَلِّي، فِي حِينِ يُعِيدُ عَبْدُ الكَرِيمِ الجِيلِيُّ صِيَاغَةَ هَذَا الْأُفُقِ فِي نَظَرِيَّةٍ أَكْثَرَ تَرْكِيزًا عَلَى الإِنْسَانِ الكَامِلِ، وَعَلَى الانتِقَالِ مِنْ مَا يَكُونُ فِي الإِنْسَانِ بِالقُوَّةِ إِلَى مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ بِالْفِعْلِ. وَتَكْمُنُ أَهَمُّ نَتِيجَةٍ فِي أَنَّ الكَمَالَ لَا يُفْهَمُ فِي النُّمُوذَجَيْنِ بَوْصْفِهِ مَرْتَبَةً وُجُودِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ بَوْصْفِهِ مَسَارًا لِبِنَاءِ الذَّاتِ، يَتَدَرَّجُ فِيهِ الإِنْسَانُ مِنَ القَابِلِيَّةِ إِلَى التَّزْكِيَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَتَحَوُّلِ الإِرَادَةِ وَالتَّحَقُّقِ وَالتَّخَلْقِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ السُّؤَالَ المَرْكَزِيَّ الَّذِي انْطَلَقَ مِنْهُ البَحْثُ - كَيْفَ يَصِيرُ الإِنْسَانُ كَامِلاً؟- قَدْ أَظْهَرَ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ لَا تَتَعَلَّقُ بِمَاهِيَّةِ الإِنْسَانِ فَحَسْبُ، بَلْ بِصَيْرُورَتِهِ وَبِمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَقِّقَهُ مِنْ إِمْكَانَاتٍ فِي نَفْسِهِ.

**نَتَائِجُ البَحْثِ:**

1. أَظْهَرَ البَحْثُ أَنَّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ ـفْهُومٌ مُرَكَّبٌ تَتَدَاخَلُ فِيهِ الْأَبْعَادُ الوُجُودِيَّةُ وَالمَعْرِفِيَّةُ وَالأَخْلَاقِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ.
2. . تَبَيَّنَ أَنَّ ابْنَ عَرَبِي يُؤَسِسُ مَرْتَبَةَ الْإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِ مَفْهُومِ الكَوْنِ الجَامِعِ، وَيَرْبِطُهَا بِالخِلَافَةِ وَالصُّورَةِ وَالأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ.
3. كَشَفَ البَحْثُ أَنَّ الجِيلِيَّ يَنْقُلُ المَفْهُومَ إِلَى صِيَاغَةٍ أَكْثَرَ صَرَاحَةً وَتَنْظِيمًا، وَيُقَدِّمُ ثُنَائِيَّةَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ بَوْصْفِهَا مِفْتَاحًا لِفَهْمِ مَرَاتِبِ التَّحَقُّقِ.
4. أَثْبَتَ التَّحْلِيلُ أَنَّ مَرْتَبَةَ الإِنْسَانِ لَا تُسَاوِي تَحَقُّقَهُ بِالكَمَالِ؛ فَالأُولَى تُؤَسِّسُ الإِمْكَانَ، فِي حِينِ يَتَطَلَّبُ الثَّانِي سُلُوكًا وَتَزْكِيَةً وَمَعْرِفَةً وَمُجَاهَدَةً.
5. تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ لَا تَنْتَهِي إِلَى تَضْخِيمِ الْأَنَا، بَلْ إِلَى كَشْفِ حُدُودِهَا وَافْتِقَارِهَا، وَهُوَ مَا يَجْعَلُهَا مَدْخَلًا أَخْلَاقِيًّا وَرُوحِيًّا لِلتَّحَوُّلِ.
6. أَظْهَرَ البَحْثُ أَنَّ التَّزْكِيَةَ لَا تُمَثِّلُ تَهْذِيبًا عَارِضًا، بَلْ عَمَلِيَّةَ إِعَادَةِ بِنَاءٍ لِلذَّاتِ وَتَحْرِيرٍ لِلإِرَادَةِ مِنْ هَيْمَنَةِ الهَوَى.
7. تَبَيَّنَ أَنَّ المَعْرِفَةَ الصُّوفِيَّةَ فِي النُّمُوذَجَيْنِ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِ الإِدْرَاكِ النَّظَرِي، بَلْ تَطْلُبُ تَحَوُّلَ العَارِفِ نَفْسِهِ.
8. أَظْهَرَتِ المُقَارَنَةُ أَنَّ الفَنَاءَ وَالبَقَاءَ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُمَا فِي سِيَاقِ بِنَاءِ الذَّاتِ بَوْصْفِهِمَا نَقْدًا لِمَرْكَزِيَّةِ الأَنَا، ثُمَّ إِعَادَةً لِتَأْسِيسِ الذَّاتِ عَلَى وَعْيٍ أَكْثَرَ تَحَقُّقًا.
9. .وتَبَيَّنَ أَنَّ الحَقِيقَةَ المُحَمَّدِيَّةَ تُؤَدِّي وَظِيفَةً مِعْيَارِيَّةً فِي نَظَرِيَّةِ الكَمَالِ ؛ إِذْ تُمَثِّلُ النَّمُوذَجَ الأَعْلَى لِلْجَمْعِيَّةِ .
10. أَظْهَرَ البَحْثُ أَنَّ الكَمَالَ لَا يَسْتَقِيمُ إِذَا فُصِلَ عَنِ الأَخْلَاقِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ؛ فَالمَعْرِفَةُ الَّتِي لَا تَتَحَوَّلُ إِلَى خُلُقٍ وَفِعْلٍ تَبْقَى نَاقِصَةَ التَّحَقُّقِ.
11. .كَشَفَتِ المُقَارَنَةُ عَنْ أَنَّ اخْتِلَافَ ابْنِ عَرَبِي وَالجِيلِيّ لَيْسَ قَطِيعَةً، بَلْ اخْتِلَافٌ فِي دَرَجَةِ التَّرْكِيزِ وَالتَّنْظِيمِ وَالتَّصْرِيحِ بِالمَفْهُومِ.
12. .خَلَصَ البَحْثُ إِلَى أَنَّ مَفْهُومَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ يُمْكِنُ إِعَادَةُ قِرَاءَتِهِ فَلْسَفِيًّا بَوْصْفِهِ نَمُوذَجًا لِتَكَوُّنِ الذَّاتِ وَتَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ وبناء المسؤولية الأَخْلَاقِيَّةِ.

**التَّوْصِيَاتُ:**

1. ضَرُورَةُ التَّوَسُّعِ فِي دِرَاسَةِ مَفْهُومِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ مِنْ زَاوِيَةٍ فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ، لَا مِنَ الزَّاوِيَةِ المِيتَافِيزِيقِيَّةِ وَحْدَهَا.
2. تَوْجِيهُ دِرَاسَاتٍ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ نَظَرِيَّةِ الإِنْسَانِ الكَامِلِ وَمَفَاهِيمِ الحُرِّيَّةِ وَالإِرَادَةِ وَالهُوِيَّةِ وَالاغْتِرَابِ فِي الفَلْسَفَةِ المُعَاصِرَةِ.
3. إِعَادَةُ فَحْصِ البُعْدِ الأَخْلَاقِيّ فِي التَّصَوُّفِ، وَالكَشْفِ عَنْ صِلَتِهِ بِالمَسْؤُولِيَّةِ وَالعَلَاقَةِ بِالْآخَرِ.

4. دِرَاسَةُ مَفْهُومِ الحُرِّيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي التَّصَوُّفِ وَعَلَاقَتِهِ بِالعُبُودِيَّةِ وَتَحْرِير الإِرَادَةِ مِنَ الهَوَى.
5. إِجْرَاءُ دِرَاسَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ حَوْلَ القُوَّةِ وَالفِعْلِ عِنْدَ الجِيلِيّ وَإِمْكَان قِرَاءَتِهِمَا فِي إِطَارِ فَلْسَفَةِ الصَّيْرُورَةِ وَالتَّحَقُّق.
6. . دِرَاسَةُ العَلَاقَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ الكَامِلِ وَالْحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ دِرَاسَةً مُقَارَنَةً بَيْنَ ابْنِ عَرَبِيّ وَالجِيلِيّ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمَا.

## الْإِضَافَةُ العِلْمِيَّةُ لِلْبَحْثِ:

تَتَحَدَّدُ الإِضَافَةُ العِلْمِيَّةُ فِي هَذَا البَحْثِ فِي نَقْلِ مَرْكَزِ الدِّرَاسَةِ مِنَ السُّؤَالِ التَّقْلِيدِيّ: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ؟ إِلَى السُّؤَالِ: كَيْفَ يَتَكَوَّنُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ؟ وَبِهَذَا يَنْتَقِلُ البَحْثُ مِنْ وَصْفِ المَرْتَبَةِ إِلَى تَحْلِيلِ الصَّيْرُورَةِ، وَمِنْ أُنْطُولُوجِيَا الإِنْسَانِ الكَامِلِ إِلَى فَلْسَفَةِ بِنَاءِ الذَّاتِ الكاملة. وَقَدْ أَظْهَرَ هَذَا المَدْخَلُ أَنَّ مَفَاهِيمَ التَّزْكِيَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالاسْتِعْدَادِ وَالقُوَّةِ وَالفِعْلِ وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ لَا تَنْتَمِي إِلَى مَجَالَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، بَلْ يُمْكِنُ تَنْظِيمُهَا دَاخِلَ مَسَارٍ وَاحِدٍ إِمْكَانٌ ← تَزْكِيَةٌ ← مَعْرِفَةٌ ← تَحَوُّلُ الإِرَادَةِ ← تَحَقُّقْ ← تَخَلُّق ← كَمَالٌ. وَهَذَا المَسَارُ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ البَحْثَ بُعْدَهُ الفَلْسَفِيَّ وَالصُّوفِيَّ وَيُبْرِزُ شَخْصِيَّتَهُ التَّحْلِيلِيَّةَ.

## خَاتِمَةٌ البحث:

إِنَّ الإِنْسَانَ الكَامِلَ فِي ضَوْءِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، لَيْسَ إِنْسَانًا يَخْرُجُ مِنْ حُدُودِ بَشَرِيَّتِهِ، بَلْ إِنْسَانٌ يَتَحَقَّقُ بِمَا تَحْمِلُهُ بَشَرِيَّتُهُ مِنْ قَابِلِيَّةٍ لِلْمَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالتَّرَقِي. وَلَيْسَ الكَمَالُ مَحْوًا لِلذَّاتِ، بَلْ إِعَادَةُ بِنَائِهَا؛ وَلَيْسَ إِلْغَاء لِلإِرَادَةِ، بَلْ تَحْرِيرًا لَهَا؛ وَلَيْسَ انْفِصَالًا عَنِ الأَخْلَاقِ، بَلْ تَجَسُّدًا لَهَا. وَبِهَذَا، يَغْدُو الإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي فِكْرِ ابْنِ عَرَبِيّ وَعَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلِيّ نَمُوذَجًا لِلإِنْسَانِ الَّذِي يَتَحَوَّلُ مِنْ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَهُ؛ وَهُوَ مَا يَجْعَلُ هَذَا المَفْهُومَ قَابِلًا لِقِرَاءَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ مُتَجَدِّدَةٍ فِي أُفُقِ الذَّاتِ وَالمَعْنَى وَالحُرِّيَّةِ وَالمَسْؤُولِيَّة.

## قَائِمَةٌ بِالمَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ:

أَوَّلًا: المصادر:


[1] -القرآن الكريم، رواية قالون عن نافع، مصحف الأوقاف الليبية، دار الأرقم، طرابلس ليبيا-
[2] ْنُ عَرَبِيّ، (مُحْيِي الدِّين)،1946 ، فُصُوصُ الحِكَمِ، تحقيق وتعليق أبي العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت .
[3] بْنُ عَرَبِيّ، (مُحْيِي الدِّين)،1985 ، الفُتُوحَاتُ المَكِّيَّةُ، تحقيق أبو العلا عفيفي، الهيئة المصرية للكتاب.
[4] الجِيلِيُّ، (عَبْدُ الكَرِيم )،1997 ،الإِنْسَانُ الكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الأَوَاخِرِ وَالأَوَائِلِ، دار الكتب العلمية، بيروت.
[5] التِّرْمِذِيُّ،(الحكيم)،1965 ، خَتْمُ الأَوْلِيَاءِ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
[6] القُشَيْرِيُّ، أ(بُو القَاسِمِ)،1994 ، الرِّسَالَةُ القُشَيْرِيَّةُ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة .
[7] الطوسي،(أَبُو نَصْرٍ)،1960 ،اللُّمَعُ فِي التَّصَوُّف، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
[8] الكَلَابَاذِيُّ،(أَبُو بَكْرٍ)،1960 ، التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ. تحقيق عبد الحليم محمود، لجنة نشر التراث الصوفي، القاهرة .
[9] الغَزَالِيُّ،( أَبُو حَامِدٍ)،1982 ، إِحْيَاءُ عُلُومِ الدّين، دار المعرفة، بيروت.
[10] ابْنُ مَنْظُور،( )،1994 ،لِسَانُ العَرَبِ، دار صادر، بيروت .
[11] الاصفهاني،(الرَّاغِبُ)،1992 ،مُفْرَدَاتُ أَلْفَاظِ القُرْآنِ، تحقيق صفوان، عدنان، دار القلم، دمشق، بيروت.
[12] الفَارَابِيُّ، (أَبُو نَصْرٍ)،1995،تَحْصِيلُ السَّعَادَةِ، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
[13] ابْنُ مِسْكَوَيْهِ،( )،2015، تَهْذِيبُ الأَخْلَاقِ وَتَطْهِيرُ الأَعْرَاق، تحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بغداد.
[14] الحكيم،(سعاد)،1981، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، بيروت.
[15] عفيفي(ابوالعلا)،1963، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، الاسكندرية.



**Disclaimer/Publisher's Note:** The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **JSHD** and/or the editor(s). **JSHD** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.